

لجنة نشر المؤلفات النعمانية

شفا والروح

بمقدم

الكاتب الكبير الأستاذ محمود تموري بك

عضو مجمع قواد الأول للغة العربية

لجنة نشر المؤلفات النورية

شفا الروح

بمعلم

الكاتب الكبير الأستاذ محمود تموري بك

عضو مجمع قواد الأول للغة العربية

القاهرة
مطبعة دار الكتاب العربي



الكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور بك
عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية

مقدمة

بقلم خليل ثابت بك

عرفت «لجنة نشر المؤلفات التيمورية» في خلال السنوات السبع التي انقضت على تأليفها ، بأنها دأبة السعى في تقصى مؤلفات المغفور له العلامة المحقق «أحمد تيمور باشا» التي كتبها ولم تر النور ، لكي تريح اللجنة الستار عنها ، وتعمل جاهدة على نشرها في الثوب الذي تنشرها به ، تقديرًا لمكانة مؤلفها القدير ، وتحقيقًا لأداء الرسالة التي حملت رايتها في سبيل نشر الثقافة العامة .

وإذا كانت اللجنة في خلال هذا العمل الكبير ، تجنح إلى فرع من فروع هذه الدوحة التيمورية ، وتنهض بنشر هذا المؤلف الذي نضعه بين يدي القارئ الكريم للكاتب الكبير ، والقاصي النابغة ، حضرة صاحب العزة الأستاذ «محمود تيمور بك» فلتؤكد أن غايتها هي النفع العلمي والأدبي بوجه عام من جهة ، وليعلم الناس من جهة أخرى ، أن هذه الأسرة التيمورية ، كبيرها وصغيرها ، ما برحت حريصة على خدمة الأدب ونشر العلم . وهو بعض ما عرف به «محمود تيمور بك» .

فقد ورث عن أبيه وجده وعمته كثيراً من حب الدرس والبحث والإنتاج ، وكان له السبق والتفوق على من سبقوه في وضع القصة ، كما يضعها ، ويضمنها آراءه عن الحياة ، وعن الناس . ويبغى من ذلك أن يعرض ما يعر به من أحداث وأفكار للحياة المصرية الصميمة ، في صور رائعة ، مقرونة بسهولة اللفظ ، وجزالة المعنى ، وسلامة الأسلوب حتى بلغ أوج المجد وغاية الشهرة عن جدارة واستحقاق . وهذه روائع قصصه الكثيرة المتعددة التي تتداولها الأيدي ، ويتهافت على مطالعتها الناس جميعاً ، وتزدان بها المكتبة العربية ، خير شاهد بعقريته ، وفلسفته في الحياة ، ونظراته للأمور نظرة منزهة عن الأغراض .

من أجل ذلك آثرت « لجنة نشر المؤلفات التيمورية » أن تساهم في نشر بعض ما يكتب هذا الكاتب القصصى ، وقد أضاف إلى تراث الأسرة التيمورية حلقة جديدة ، وأثرًا نافعاً .

وسيجد القارئ الكريم في فصول هذا الكتاب ألواناً شتى في دراسة القضايا الاجتماعية ، وهي بعيدة كل البعد عن التقليد أو التقليد ، شأن المؤلف المبتدع في كل ما يصوغ أو يكتب أو يؤلف . وقد قدر له ذلك كله « مجمع فؤاد الأول للغة العربية » ، فأسند إليه عضويته اعترافاً بعلمه وفضله .

رئيس اللجنة

خليل ماب

المصادر التي ألهمني الكتابة

عندما ألتفتُ خلفي متكشِّفاً ماضىَ حياتي ، أرى أربعة عوامل أساسية قد عمَّلتُ في تكويري كاتِباً :

الأول : والدي « أحمد تيمور » ، والثاني : شقيقى « محمد » ،

والثالث : حوادث خاصة كان لها تأثير في تحويل مجرى حياتي ،
والرابع الأخير : مطالعاتي .

فوالدي جدير أن يكون قد أورثني مؤهلات الكتابة ، وقد تعهدني منذ النشأة ، وحبَّب إليَّ المطالعة والتأليف . وأخى هدَّب ذلك الحبَّ وأذكاه . وحوادث حياتي ثم مطالعاتي هي التي عينت لي تلك الوجهة التي أترسَّمها الآن في حياتي الأدبية .

وُلدتُ في « درب سعادة » وقضيتُ طفولتي في منزل يشبه القلعة المهدِّمة ، ونشأتُ وأنا أرى لوالدي خزانة كتب قد خصَّصها بكامل عنايته ، ولم يبخل عليها بوقته ولا بماله . فكنت أنمو وهي تنمو معي ، فتآلفنا وتحاببنا ، ومن ثمَّ تولد فيَّ الغرام بالكتب ، فبدأتُ أجمع ما تيسر لي جمعه منها . وخطر لوالدي أن يُحفظني أنا وأخوى - مُعلِّقَةً « امرئ القيس » ، وكانت مهمة شاقة عليه وعلينا ، فقد كنا في سنِّ

لا نستطيع معها فهم بيت واحد منها ، واستطعنا بعد أشهر استظهارها جيّداً ، وعلم أستاذ اللغة العربية في المدرسة أننى أحفظ المعلّقة ، فطلب منى أن أعتلى المنصة ، وأنشد إخوانى التلاميذ إياها ، فأنشدتها ، فمُسرَّ الأستاذ، ومنحني الدرجة كاملة . ولم أعد ألوم والدى على خطته معنا .

ولما توفيت والدى ، ثم جدّتى لأبى ، عزّ على والدى البقاء فى منزل « درب سعادة » . وكانت صحته قد اعتلت ، فنصح له الأطباء بتبديل ذلك الوكر الرطب ، واختيار مسكن خلوى جاف ، فانتقلنا إلى « عين شمس » . هناك قضيت أطيّب أيام صباى .

كان منزلنا الجديد ريفياً صمياً ، يتوسط خمسة أفدنة مقسمة خدائق ومزارع اعتنى والدى بتخطيطها وغرسها فى ذوق حسن ، فكنت ألعب وأمرح مع أخوى فى هذا المكان الفسيح وفق هوانا . وكانت حياتنا فى هذه الفترة أقرب إلى حياة السذاجة الريفية ، فقد كان المنزل صغيراً مبنياً باللبن ، مؤثثاً فى غير ترف ، وكانت لنا خيول نجوب على ظهورها صحراء « كفر جاموس » وحقول « المطرية » .

وكانت دارنا مهبطاً لكثير من علماء العصر وفضلائه ، أذكر منهم : الشيخ « محمد عبده » ، والشيخ « الشنقيطى » الكبير ، وهما ممن تلقى والدى العلم عنهم .

أما الشيخ « محمد عبده » ، فكثيراً ما ركب القطار معنا من « عين شمس » إلى « القاهرة » . وما زالت صورته ماثلة أمام عيني ، بوجهه الصبيح ، ولحيته الجميلة ، وجلسته التى يحفّ بها الوقار والجلال .

فكنت أصفى إلى حديثه المتزن إصغاء مسحور .
وأما « الشنقيطي » الكبير ، فقد صحبتُ مرةً والدى إلى منزله
- ولعلها مرات - ولن أنسى في حياتي ذلك المنظر العجيب الذي
شاهدته هناك : شيخ أسمر هزيل يتكلم العربية الفصيحة بلهجة مغربية .
يجلس متربعاً ، في وسط حجرة تكاد تكون عارية من الأثاث ، فليس
فيها إلا حصير وبعض وسائل منثورة هنا وهناك . وخلف الشيخ
أسفار متراصة كأنها تلال ، وبجواره مَبَصَّقة لا يستغنى عنها . ومن
عجيب أمره إنه إذا ذكر اسم كتاب وأراد أن يريه زائر ، تحرك في
مقعده حركة ، ثم مد ذراعه ، فإذا الكتاب في يده .
ولا يسعني أن أغفل في هذا المقام الإشارة إلى عمتي « السيدة عائشة
التيمورية » الشاعرة ، فقد أدركتها في أخريات أيامها ، وإني لأذكر
كيف كانوا يدخلوننا إليها في حجرتها الخاصة ، حيث تقضى شيخوختها .
كانت تحتفل بنا ، وتغمُرنا بعطفها وحنانها . إني لأتخيلها الآن وهي
جالسة على مقعدها الفسيح تتراعى عليها المهابة ، فتتمثل لي صورة الملكة
« فكتوريا » وهي متربعة على عرشها ، وكانت في ذلك الوقت بادنة
مترهلة ، لا تترك مقعدها إلا في النادر ، يحيط بها سرب من القطط
مُعْظَمُهُ جاوز عهد الشباب ودخل في سن الكهولة ، ولكل قطة حَشِيَّة
تجلس عليها . ولما اشتدَّ عُودي واستطعتُ أن أتذوقَ الشعر وأفهمه ،
قرأتُ الكثير من شعرها ، وحفظتُ مَرَّثِيَّتَهَا الشهيرة لابنتها ، وكان
إعجابي بنظمها كبيراً .

كان والدي كثيرا ما يأخذنا إلى الريف ، فنُمضي هناك إجازة الصيف . وكنت أحب الحياة فيه ، أقضى الوقت مع الفلاحين ، أحضر مجتمعاتهم وأستمع إلى أحاديثهم ، وأطرب لأغانهم ، وأعب بالكرة في بيادهم . وعرفتُ هناك فيمن عرفت شخصية طريفة أُعجبتُ بها ، هي شخصية « الشيخ جمعة » خفير « جرن الأوسية » الذي كان موضوع أقصوصة لي فيما بمد .

وأذكر أن أول عمل أدبيّ عاجلته ، هو إنشائي بمعونة شقيق « محمد » صحيفة خاصة كنا نطبعها على « البالوطة » وننشر فيها أخبار المنزل والأصدقاء . وكان لنا مسرح يتيّ تقيمه بين حين وحين في أحد الأبياء بالمنزل ، لتمثل عليه مسرحيات ساذجة من تأليفنا ، كنا نضعها على غرار مسرحيات « سلامة حجازي » . وذكا ميلى للمطالعة ، فأقبلتُ على الروايات أشبع منها رغبتى ، وكان جُلّها مترجماً مما لا قيمة فنية له . وأهدى إلى والدي مجلدا ضخما من « ألف ليلة » أصدرته مكتبة الهلال مهذباً ، في طبعة مصوّرة أنيقة ، فتعاقتُ به ، وطالعتُه بأكمله ، وكنتُ أجمع من يرغب في الإستماع من أهل المنزل ، وأعيد عليهم تلاوة ما قرأت . ولعل السر في شغفى « بألف ليلة » في تلك الحقبة هو مشابهتها « للحواديت » التي عشنا في جوها ردحا من أيام الطفولة والصبا ، فكأنى أعود بها إلى سذاجتى الأولى ، وكلُّ منا يشعر بحنين عظيم إلى ذلك العهد . على أن الذى كان يعجبنا من « ألف ليلة » ليس مجرد شبهها « بالحواديت » ، بل اتساع أفق الخيال فيها ، وخلاصة حواديتها . كل ذلك في جو شرقى

ساحر ، يَمْتُّ إلى نفوسنا بأوثق الصلات ، جو طالما تمنينا أن نعيش فيه ،
فنشعر أننا نغاصر مع أبطاله ، نرتفع مع الرُّحَّ إلى السماء العليا ، ثم نهبط
إلى وادي الثعابين ، ففجارة الموتى ، فمدينة التُّحَّاس ، ثم نعود إلى الأهل
والأحباب تُثَقِّلنا أ كداس من الذهب !

و« ألف ليلة » هو أحد كتب قليلة تُكَوِّن التراث الضئيل لثقافتنا
القصصية . وهذا التراث هو الذي يساعد القاصِّ منا على إنماء موهبة
التخيل فيه . والخيال هو المامل الأساسي في التأليف القصصي ، وبدونه
يكون القاصِّ عاجزا عن الخلق والابتكار ، فتخرج آثاره سطحية ،
لا تزيد قيمتها على تدوين الحوادث الجارية . والحق أن « ألف ليلة »
مفخرة القصة في الأدب العربي ، وإن كان أصله ليس عربيًا ، فقد جاءنا
من طريق الفُرس ، وهذا يعلل لنا قوة الخيال فيه ، ثم تناولته بعضُ
الأقلام في العصور العربية بالزيادة والتغيير . فالعربيُّ الأصيل لم يترك لنا
تراثا يُعْتَدُّ به في القصة ، وإن كان قد ضرب بسهم وافر في فنون الأدب
الأخرى ، كالشعر والخطابة والترسل ، فقد كانت فكرته البدوية ،
وحياته في بقاع قاحلة متشابهة قلَّت فيها ألوان الطبيعة ، وقناعته بالقليل
الضئيل من أسباب العيش - من العوامل التي أبعدهُ عن إذكاء خياله ،
وإطلاقه في تناول أعماق الحياة وخوافيها .

وكان العصر الذي نعيش فيه قد تسلطت عليه النزعة المحافظة ،
فكان الكاتب يرجع غالبا في كل ما يكتب إلى السلف الصالح ، يستعير
صبغتهم في الكتابة ، وأساليبهم في التعبير ، وكان حديث الخلافة

الإسلامية يعلاً الرؤوس ، فكنا نرضى عن طيب خاطر بتبعيتنا لدار
الخلافة ، ولا نفكر في تأليف وحدة وطنية لنا .

وإذا فكرنا في الوطنية لم تكن وطنيتنا إلا إحياء الأمبراطورية
العربية القديمة . في ذلك الجو عشنا وقتنا ، لانتهدى في طريقنا بغير هدى
الماضى . ولكننا أخذنا نسمع على أثر تتابع البعثات إلى ممالك « أوربة »
وازدياد أسباب الإتصال بيننا وبين العالم المتحضر ، نعمةً جديدةً كانت
تدعو إلى التجديد في اللغة والأدب والسياسة والدين ، ولكنها قوبلت
من جبهة المعاصرين بالإستنكار . وكان زعماء هذه النهضة : « سعد
زغلول » و « محمد عبده » و « قاسم أمين » و « لطفى السيد » وتلاميذه
فيما بعد . فقد نبه « سعد » الأذهان إلى القومية المصرية ، وحددها
تحديداً أخرجها عن زخارف الخلافة التركية ، وأمانى الأمبراطورية
العربية . ونفى « محمد عبده » عن الدين ما كان عالقا به من الأوهام ، فأظهره
على فطرته السمحة . واقتحم « قاسم أمين » ميدان المرأة ، وأخذ يمزق
النقاب عن وجهها ، ويخرجها من قاعات « ألف ليلة » حيث يعبق
البخور ، إلى ميدان النور والحياة والعمل .

ولما تهذب ذوقى في المطالعة أقبلت بشغف على قراءة « المنفلوطى »
فقد كانت نزعته « الرومانسية » الحلوة تملك على مشاعرى ، وأسلوبه
السلس يسحرنى . وكل إنسان فى أوج شبابه تطغى عليه نزعته
« الرومانسية » والموسيقى ، فيصبح شاعرا ، ولو بغير قافية ؛ وقد يكون
أيضا شاعرا بلا لسان !

ولما كان شقيقى الأكبر « إسماعيل » بِحُكْمِ مكانه من الأسرة قد اضطلع بزعامة المنزل ، وأخذ على عاتقه القيام بما تفرّضه هذه الزعامة من انجاء إلى العمليات ومحافضة على تقاليد الأسرة وما يتبعها من رسميات ، وجدتُ الفرصة سانحة للتخلف فى ذلك الميدان ، واستطعت أن أتحمم فى أوقات فراغى إلى حد كبير ، أصرّفها - وَفَقَ ميولى - بعيداً عن الحياة العملية ومظاهر الرسميات ، فأشبعْتُ ميلى إلى المطالعة .

وكان نصيب الشعر وافرأ فى مطالعاتى هذه ، الشعر بنوعيه : العربى والإفرنجى ، وخاصة شعر المعاصرين . وكنت أفضل منه غالباً ما كان خيالياً مغرقاً فى الخيال . وكانت المدرسة الأمريكية التى أنشأها إخواننا اللبنايون والسوريون فى المهجر ، قد بسطت نفوذها على الأدب المصرى ، فأخذتُ بها ، وشغفت كبير الشغف بزعيمها « جبران » ، ذلك الشاعر الرمزيّ المغرق فى الرمزية ، وكانت « الأجنحة المتكسرة » أول كتاب حظى منى بأوفى حب وتقدير ، فتأثرت به أولى كتاباتى ، وجُلّها من الشعر المنشور ، ذى النزعة الرومانسية وكان « لجبران » وجماعته مجلة تُدعى « الفنون » ، قرأنا فيها حقاً لونا جديداً من الأدب ، الأدب الذى يحاول أن يخرج عن نطاق التقليد فى الفكرة والقالب . هذا الأدب كان يستمد وحيه من الغرب ، وقد استحدث له أسلوباً جديداً خرج فيه عن بعض قواعد اللغة ، ونهج المنهج الإفرنجى . فاستعدنا لطفه وشذوذه عن المؤلف . ولا جدال فى أن ذلك الأدب على علاته ، كان يحوى عنصر التجديد ، فلا يمكننا إنكار فضله ، فهو دم جديد جرى فى عروق أدبنا

المحافظ فدبَّت فيه حياة جديدة ، وكان للقصة نصيب لا يستهان به في هذا الأدب « المتأمر ك » ، والقصة — حتى ذلك العهد — بضاعة تكاد تكون غريبة عنا ، فتأثير هذه المدرسة في تلك الناحية من أدبنا ظاهر ملموس . وأخذ نفوذ هذه المدرسة يتضاءل على مرِّ الأعوام ؛ إذ كثرت البعث المصرية إلى « أوربة » . فلما عاد أعضاؤها إلى مصر ، وأخذوا يبشرون بمبادئ جديدة في كل فرع من فروع حياتنا ، ومنها الأدب ، فكانت بداية نهضة جديدة ، نهضة لها خطرها . وكنا على أبواب الحرب ، وعاد شقيقى « محمد » من « أوربة » محملاً بشتى الآراء الجريئة . كان يتحدث بها إلى ، فأستقبلها بعاطفتين لا تخلوان من تفاوت : عاطفة الحذر ، وعاطفة الإعجاب . هذه الآراء كانت وليدة نزعة ثورية ، قوامها وجود القديم . . . ولكن جدَّتْها أخذت تهدأ على توالى الأيام ، ومن ثم اتخذت طريقها الطبيعي في التطور . والأمر الذى كان يشغل فكر أخى ، ويرغب فى تحقيقه ، هو إنشاء أدب مصرى مبتكر يستملى وحيه من دخيلة هموسنا وصميم بيتنا .

ويحسن هنا أن أذكر حادثاً مهماً أعتقد أنه كان نقطة تحوّل فى حياتى الأدبية ، إذ وجّه مجرى هذه الحياة وجهة معينة . أصبْتُ بمرض « التيفوئيد » وكنت إذ ذلك فى العشرين من عمري — وكانت وطأة المرض شديدة على ، فلزمت الفراش ثلاثة أشهر قضيتها فى ألوان شتى من التفكير ، وأخلط من الأحلام ، واستطعت أن أهضم الكثير من الآراء التى تلقيتها من أخى ، أو استمددتها مما قرأته من الكتب . فلما أبلت من

مرضى ، وأردتُ استئناف دراستي العالية - وقد كنتُ بدأتُها فعلاً -
حال دون ذلك ضعف بنيتي ، فعمشتُ فترةً من الزمن متعطلاً ، وأطلقتُ
لنفسى عِنان الحرية - شيئاً ما - فخرجتُ عن الكثير مما كان يقيّدنى
من تحفُّظات الأسرة . وشعرتُ باشتداد ميلى للأدب ، فرسمتُ له دراسة
شبهَ منظمة ، وخصّصتُ له وقتاً معيَّناً من وقتى ، فكأننى قد أردتُ
بهذه الخطة استكمال النقص الذى لحقنى من انقطاع دراستى العليا . فها
لا ريب فيه أن حادث المرض كان بداية تطور جديد فى حياتى الأدبية ،
نقلنى من دور التردد إلى دور اليقين ، ومن دور الإلحاح والهواودة فى التحصيل
إلى دور الجدّ فيه والإستيعاب . وما إن مضيت فى ذلك حتى كان شقيقى
قد اقتحم المسرح ، إذ كان ميدانه الأكبر ، فألّفَ فيه بالعامية ، وعالج
موضوعات مستخلصة من حياتنا المصرية فى فنٍّ جديد ، امتاز بوصف
مُبَدَع ، وتحليل دقيق ، وأسلوب جذاب . ومارس كتابة القصة ، فاستحدث
طريقة تكاد تكون غير مألوفة فى أدبنا فى ذلك الوقت . ونظم الشعر
فترجم فيه عن إحساسه المرهف . وألّفَ فى النقد المسرحى ، فابتدع لونا
جديداً مرّحاً ، فيه هزل وفيه جد . وعلى الجملة كان أدب « محمد تيمور »
أدباً مبتكراً مادته الحياة المصرية ، والنفس المصرية . هذا على حين أن
والدى « أحمد تيمور » كان يعمل ويؤلف فى ميدان آخر - ميدان اللغة
والتاريخ والأدب القديم ، لا يبرح خزائنه إلا لماماً ، يعيش فى جوِّ
المجموعات وحوادث العهد الغابر ، وقد يقضى الساعات الطوال بل الأيام
فى الكشف عن لفظ أو تحقيق خبر .

في ذلك الوقت كنت أستشير في مطالعاتي بهداية شقيق ، فنصح لي فيما
نصح بأن أطلع « حديث عيسى بن هشام » للمويلحي ، ورواية « زينب »
للدكتور هيكل ، فرأيتُ فيهما لونا يختلف عن اللون الرمزي الرومانسي
الذي كنت غارقا فيه ، لونا واقعيًا يهبط بالقارئ من سماء الخيال العليا
حيث يعيش الناس كالملائكة فوق الضباب - إلى الأرض التي نحيا عليها
حيث نرى الناس بشرا مثلنا ، على فطرتهم التي خلُقوا عليها .

و « حديث عيسى بن هشام » يعدّ في نظري المرحلة الثانية للقصة
في الأدب العربي بعد « ألف ليلة » ، فقد نحا فيه مؤلفه منحى عصريًا ،
نخياله واسع ، وسرده ممتع ، وشخصياته لا تخلو من إحكام في الوضع . وهو
وإن كان قد تقيّد بعض التقيّد بالمقامات في الأسلوب والتأليف ، فقد
امتاز بأنه أول محاولة ناجحة لتمصير الأدب ، وصنّعه باللون المحلي الزاهي ،
مع سموه عن الواقعية الساذجة .

أما رواية « زينب » فهي فيما أرى تعدّ أول عمل أدبي في القصة
المصرية ، يتضمن العناصر الأساسية للقصة الحديثة كما نعرفها اليوم .
وامتدح لي شقيق غير مرة « موبسان » الكاتب الأقصوصي الفرنسي
فبدأت أطلعه ، وما كدت أقرأ له مجموعة حتى فُتنتُ به ، وتابعتُ قراءتي
إياه في شغف عظيم . واتسعت مطالعاتي فيما بعد في القصص الأوربيّ
وتشعبت ، ولكنني حتى اليوم ما زلت محتفظاً « لموبسان » بالمكان
الأول في نفسي ، فهو عندي زعيم الأقصوصة الأكبر . وفنّ « موبسان »
في نظري فن كامل توافرت فيه كل العناصر اللازمة لبناء قصة قوية ، من

حيث عرضُ الموضوع ومعالجتهُ ، وتحليل شخصياته ، وتسلسل الحوادث وخواتمها . كل ذلك في وضوح واتزان . ولا أذكر أنى قرأتُ له قطعة لم تهزنى .

ثم انتقلتُ بعد ذلك إلى القصص الروسيّ ، وقرأتُ « لتشيخوف » و « تورجنيف » ومن ماثلهما ، فرأيتُ تأثير « موبسان » واضحاً في بعض إنتاجهم . ويمتاز القصص الروسيّ بعنصرى الصدق والبساطة ، فما القصة الروسية غير قطعة منتزعة من نفس صاحبها ومن مشاهداته ، يعرضها في غير كلفة ولا زخرف ، وقد يقرأ الإنسان أقصوصة من هذه الأقاصيص فلا يرى فيها موضوعاً تاماً له بدايته ونهايته ، بل يرى صفحة ساذجة من الحياة ، ولكن تتراءى له خلف هذه السذاجة الظاهرة صفحات من صميم المأسى البشرية . لذلك نعتقد أن قوة القصة ليست في حوادثها المثيرة الفاجعة ، ولا في مشوّقاتها المبتدلة التي يتعمد القاصّ الضعيف أن يجتلبها ليستر ضعفه وراءها ، بل إن قوتها الحقة في بساطتها وصدقها ، وصوغها في قالب فنى رفيع .

وكانت الحرب قد انتهت ، وباتت هائماً ثارت فينا نزعة القومية ، وأدركنا صلاح المبادئ التي نادى بها « سعد زغلول » وصحابته ، واتسع نطاق « المصرية » فطغى على كل شيء في حياتنا ، سواء أكان في السياسة والاقتصاد ، أم في الأدب والاجتماع .

أما من الناحية السياسية ، فقد أدركنا كيف أن الدولة العثمانية التي كنا ننظر إليها زعيمة وهنقدة ، قد جعلت تنهار وينكشف لنا ضعفها ،

فعادت إلينا الثقة بنفوسنا ، ورأينا من مبادئ « ولسن » الأربعة عشر ما يحقق لنا حياة مستقلة سعيدة لا تبعيَّة فيها ولا خضوع . فاعترمنا أن نعمل لهذا الاستقلال ، معتمدين في ذلك على أنفسنا وحدها .

وأما من الناحية الاقتصادية ، فقد دفعتنا الحاجة إلى سد الثُّغرة التي أوسعتها الحرب في وارداتنا الأجنبية ، فنَشِطَتْ بعض الصناعات الوطنية وازدهرت ، وبدأنا نحسُّ لذة الفوز في ذلك المضمار ، فطالبنا بالمزيد . وقد تأكدنا أن في مقدورنا السيطرة على صناعتنا إذا توافرت لدينا الجهود الصادقة . ومن ثمَّ تأسَّس « بنك مصر » وأخذت شركاته تُولد ويشتدُّ عودها .

أما من الناحية الاجتماعية ، فقد شاهدنا كيف أن الحرب في « أوربة » قد قلبت الأوضاع ، فأنشأت نظماً وأوضاعاً فرضتها فرض المتحكِّم الغلاب . فلحِقنا منها الشيء الكثير ، ورأينا أن الانقلاب الذي كان يتقدَّر له « قاسم أمين » عشرات السنين ، يتم في أعوام لا تتجاوز عدَّ أصابع اليد . أما الأدب ، فقد اصطبغ باللون المحليِّ الصارخ ، حتى أغانينا الشعبية غابت عليها هذه الصبغة . ورأينا أنفسنا نتجه نحو الواقع ، فأصبحنا عمليين بعد أن كنا شعراء خياليين . وشاع المسرح المحليُّ ، وبخاصة الهزليُّ منه ، وانتشر الاقتباس ، وبدأ الابتكار ، على حين تضاءلت الترجمة . في هذا الجو كتب « محمد تيمور » أقاصيصه : « ما تراه العيون » وقد نحا فيها نحو المذهب الواقعيِّ ، وصور فيها مناظر مختلفة من بيئتنا المصرية وأشخاصها ، صاغها أقاصيص جمعت بين فن مبتكر وأسلوب رشيق

سهل ، فأعجبتُ بها إعجاباً دعاني إلى أن أوّلف على غرارها ، فكتبتُ
باكورتى فى القصة : « الشيخ جمعة » ، ثم أردفتُها بأقصوصة تُسمى :
« يُحفظ بالبوَسطة » . وكنتُ قد أهملتُ الشعرَ المنشور ، فاندفعتُ أكتب
مترسِّماً فى كتابتى المذهب الواقعى ، وذلك بتأثير الجوِّ الجديد الذى نعيش
فيه ، وما كنتُ أقرؤه من قصص على هذا المذهب . وكنتُ لا أحفل
بالأسلوب احتفالى بتصوير الواقع .

وفجعتنى القدر وقتئذ فى شقيقى « محمد » وهو فى ميعة صباه ، وشرّخ
شبابه ، وتألّق أمانيه . وشعرتُ بعد موته بانهيّار أمله الكبير فى إنشاء
أدب مصرى جديد ، كثيراً ما كان يحدثنى عنه فى حماس و يقين . ودّهمنى
اليأس ، ورأيتُ نفسى أضعفَ من أن أخلفه فيما كان يبشّر به ، فخلدتُ
إلى السكينة ، وقد توقعتُ الفشل وتوالت الأيام ، وبدأتُ عجلة
الحياة القاسية تسير فى طريقها ، لا يعنّيه من أمور العالم إلا استكمال
دورتها ، فأخذتُ الجروح تندمل ، وإن كانت الذكرى باقية بقاء الرُوح
فى الجسد .

ورأيتُ نفسى قد نشطتُ للعمل ، وجمعتُ من ضعفى قوة تقدمتُ
بها فى ميدان التأليف ، وقد انطلقتُ أنفض عنى اليأس ، وأقصى شبح
الفشل ، معتمداً على نفسى ، مهتدياً بهدى شقيقى الراحل . فكنتُ أعمل
وكأني مندفع بباعث من « واعيى الباطنة » إلى استكمال ما كانت تصبو
نفس شقيقى إليه لو أتاحت له الحياة . وكنتُ أحس أننى بهذا العمل
أرضى رُوح شقيقى ، وأقرؤها واجب التحية والإجلال .

وما إن أقبل عام ١٩٢٥ م حتى رأيت أنه قد تجمّع عندي مادة من القصص يصحّ إظهارها في كتاب ، فطبعتُ : « الشيخ جمعة وقصص أخرى » ثم أردفته بغيره .

ولما هدأت نزعة المصرية الحادّة بألوانها المحلية الصارخة ، واستقرت الأمور في نصابها الطبيعيّ ، تطورت نظرتي إلى الأدب ، فكانت في طورها الجديد أوسع وأعمق .

وسافرتُ في تلك الفترة إلى « أوربة » . ومكثتُ بها حيناً يزيد على العامين ، قضيت معظمه في « سويسرا » . فتنفّرتُ للقراءة ، واتصلتُ بالأدب الأوربيّ الحديث أقرب اتصال . وطالعتني أثناء إقامتي هناك مرثيات ومناظر هزّت نفسي ، وتغلّغت في صميم قلبي . كما أن خبرتي بالحياة ، ومعرفتي لها ، قد اتسعت وتنوعت . فكان لهذه الحياة الجديدة التي عشتها هناك أثر لا يُنكر في تطور فكري ، ورأيتُ على ضوء مطالعاتي الجديدة وفهمي لنظريات الأدب العالميّ أن اللون المحليّ ليس كل شيء ، بل هو بعض الشيء . وما الأدب الكبير إلا أن يولي الإنسان وجهه شطر النفس البشرية . فحولتُ اتجاهاً نحو هذه الوجهة ، محاولاً التقدم فيها ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً . وإني الآن أعتقد أن الأديب يجب ألا يقيد نفسه في التأليف بمذهب يترسّمه ، فالأدب ميدان فسيح ، على الكاتب أن يمرّح فيه طليقاً . فليرسل رُوحه على سجيتها ، فما المذاهب الأدبية إلا من صنّع النقاد لا من صنّع الأدباء ، وضعوها لينظموها بها قهراً ، ويخضعوه لقوانين منطقية .

ولا أستطيع أن أختم هذه العجالة قبل أن أتحدث عن أمر أضعه
في مقدمة الأمور التي أثرت وما زالت تؤثر في مجرى حياتي ، أعني به
صحتي . فقد تألبت على الأمراض منذ الطفولة . وأذكر بالخير طيبى
الأول ، فقد كان يجمع بين الطب والطببة ، أى بين العلم والصدقة .
فلم يكن يداوى الجسم وحده ، بل يداوى معه النفس . كان طيبب الطفولة
هذا رجلاً نحيفاً ذا طربوش أفطس ووجه أسمر مهزول . ولا أدري لماذا
يخطرُ ببالي كلما شاهدتُ صورة « دون كيشوت » هذا الطيب ،
أو بالأحرى هذا الصديق . كان يحضر لزيارتنا ويمكث معنا الساعات
الطوال يجرّنا الدواء ويتجرّعه معنا ، وهو يرّوى لنا القصص والنوادر .
منذ الصغر والعلل تتردد على ، حتى ألفتها الآن ، وأصبحت غير
غريبة عني . منذ سنين طويلة وأنا في رقابة الطب في ما كلى ومشرى ،
وفي نومى ويقظتى . سنّ لى هذا الجبار قوانين لا أستطيع الخروج عليها ،
فأنا أعيش من مرضى فى قفص ، أنظر إلى الأصحاء من الناس يستمتعون
بكال حريرتهم ، فأغبطهم ، وتالننى حسرة أليمة .

وهكذا كنت أحسّ فى أعماق نفسى بنقص يحجزنى عن
الإستمتاع بما ينعم به غيرى . هذا النقص دفعنى وما زال يدفعنى إلى أن
أستكمل فى الخيال ما عجزت عن إتيانه فى الواقع . ومع ضعف صحتى ،
وما نالنى من مرض ، أجدُ نفسى قد تخطيت الأربعين وما زلت حياً
أرزق ، فأعجب لذلك وأقول :

« لِسَّه لَكَ عُمر ! »

شِمْكَاءُ الرُّوحِ

أخى المؤمن :

قُصَارَى مَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ فَوَاذُكَ أَنْ تَكُونَ سَعِيدًا . وَإِنَّكَ لَتَسْعَى
جَاهِدًا غَيْرَ وَإِنْ ، بَاذِلًا كُلَّ مَرْتَحَصٍ وَغَالٍ ، لَا قِبْلَةَ لَكَ إِلَّا أَنْ تَحْطَى
بِتِلْكَ السَّعَادَةِ الْمُنْشُودَةِ . . .

وَلَكِنَّكَ تَظْلِمُ نَفْسَكَ إِنْ عَدَدْتَ السَّعَادَةَ فِيمَا يَتَرَاءَى لَكَ مِنْ
عُرُوضِ الْحَيَاةِ ، كَالْغِنَى وَالْجَاهِ . . . فَهَذِهِ الْعُرُوضُ الَّتِي يَسْتَعْصَى عَلَيْكَ
مَنَالُهَا ، وَالَّتِي تَحْسَبُ الْخَيْرَ أَجْمَعَ فِيهَا ، رُبَّمَا كَانَتْ هِيَ بَاعِثَةَ الشَّقَاءِ ،
وَمَدْعَاةَ الْعَذَابِ .

وَأَنْتَ فَقَدْ تَجَاهَدَ وَتَجَالَدُ ، حَتَّى تَبْلُغَ مَا رَبَّكَ مِنْ هَذِهِ الْعُرُوضِ ،
وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ يَتَجَلَّى لَكَ مَا خَفِيَ عَنْكَ ، فَتَعْرِفُ بَعْدَ لَايٍ أَنَّكَ كُنْتَ
مُخْدِعًا تَظُنُّ السَّرَابَ مَاءً ، وَأَنْ الْغِنَى وَالْجَاهُ وَمَا إِلَيْهِمَا مِنْ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ ،
إِنَّمَا هُوَ زَيْفٌ بَاطِلٌ ، وَزُخْرُفٌ زَائِلٌ . . .

وَيَوْمَ تَقِفُ عَلَى الْقِيَمَةِ ، بَعْدَ أَنْ صَعَدْتَ فِي السَّلْمِ الَّذِي اسْتَهْوَاكَ ،
تَرَى أَنَّكَ لَمْ تَظْفَرْ مِنْ جَوْهَرِ السَّعَادَةِ بِطَائِلٍ ، وَأَنْ مِنْ حَوْلِكَ غُيُومٌ
الْحَيَاةِ وَظُلُمَاتُهَا مَطْبِقَةٌ عَلَيْكَ ، وَأَنَّكَ لَمْ تَنْكَشِفْ عَنْكَ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّ .

ولو سَمَتَ نَفْسُكَ إِلَى أَنْ تَسْتَكْنِهَ سِرًّا ذَلِكَ ، لَعَلِمْتَ عَلَى يَقِينٍ أَنْ
المَظْهَرَ قَدْ غَرَّكَ ، فَفَقِّهْ أَثْرَهُ ، وَاسْتَرْسَلْتَ فِي طَلْبِهِ ، فَلِمَ تُعْنِ
بِالْمَخْبَرِ وَاللُّبَابِ .

أخى المؤمن :

إن للسعادة لمنبعاً فيأضاً هو « الروح » .

فمن تنكَّب عنه ، لم يظفر برشفة منه ، ولو أدلت إليه السماء
بأسباب ، ومن فطن له بلغ السعادة من أقرب باب .

ولا تبلغ الروح هذا المبلغ من إسعاد الإنسان إلا إذا توافر لها الصفاء
والنقاء ، فإذا هي تشفِّ وتخفِّ ، وإذا هي تسمو إلى آفاق علوية ترفعت
عن الشوائب والأدران .

فهل لي أن أكشفك بما أسميه « تجربة » أو « وصفة » تُنبئك
ما تريده لروحك من صفاء وتطهر ، حتى تصل إلى شفاء النفس ، وتتوفر
لك السعادة الحقة ؟

لست أفجؤك بما يروغك سماعه ، أو يُعييك فهمه ، أو يتعاصى
عليك إنفاذه . . .

إنها وسيلة بالغة الشبوع ، قريبة التناول ، بيد أن الناس قلما يلتفتون
إلى سببها العظيم ، وأثرها الناجع ، فهم لا يتخذونها على النحو الذى
يحقق تلك الغاية الغالية .

أخى المؤمن :

نُصِحِي إِيكَ أَنْ تَضَعِ مِصْحَفًا فَوْقَ وَسَادِكَ ، لَا تَتَّخِذْهُ تَمِيمَةً مِنْ
التَّمَامِ ، وَلَا تَعْوِذَةً مِنَ التَّعَاوِذِ . . . وَإِنَّمَا تَتَّخِذُهُ نَبْعًا فَيَاضًا تَسْتَقِي مِنْهُ
لِرُوحِكَ صَفَاءً ، وَلِنَفْسِكَ شِفَاءً !

لِيَكُنْ مِنْ دَأْبِكَ فِي إِصْبَاحِكَ أَلَّا تَقَعَ عَيْنُكَ أَوْلَ مَا تَقَعَ إِلَّا عَلَى
هَذَا الْكِتَابِ الْخَالِدِ ، فَارْتَلْ مِنْهُ مَا تَسَّرَ ، وَامْلَأْ سَمْعَكَ بِتِلْكَ الْآيَاتِ
الْبَيِّنَاتِ ، مُتَمَتِّعًا بِسِحْرِ الْبَيَانِ ، وَرُوعَةِ الْإِيْقَاعِ . وَاتْرِكْ حِكْمَتَهَا الْبَالِغَةَ
تَسْرَى فِي وَليِجَةِ نَفْسِكَ ، فَتُضَيِّءُ مِنْ جَوَانِبِهَا مَا أَظْلَمَ ، وَتَجْلُو مِنْهَا
مَا صَدَى . فَإِنَّكَ لَا تَلْبِثُ أَنْ تَحْسَبَ رُوحَكَ قَدْ انْسَكَبَ عَلَيْهَا فَيُضِ
يَكْفُلُ لَهَا الطُّهْرَ ، وَيُشِيرُ فِيهَا الْإِتْعَاشَ .

أَنْعِمِ بِذَلِكَ بَدْءَ الْنَهَارِ الْوَضَّاحِ !

لَتُصْبِحَنَّ وَقَدْ شَاعَ فِي أَسَارِيرِكَ بِشْرٌ ، وَامْتَلَأَتْ نَفْسُكَ بِالثِّقَةِ .
وَلَتُقْبِلَنَّ عَلَى عَمَلِكَ نَاشِطًا فِي تَيْمُنٍ وَانْشِرَاحِ .

وَلِيَكُنْ كَذَلِكَ مِنْ دَأْبِكَ فِي لَيْلِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ الْمِصْحَفُ آخِرَ
مَا تَقَعَ عَلَيْهِ عَيْنُكَ ، قَبْلَ أَنْ تَسْلِمَ أَجْفَانَهُمَا لِلْعَنَامِ . فَارْتَلْ مِنْ آيِ الْقُرْآنِ
مَا وَسِعَكَ أَنْ تَرْتَلَ ، تَطْهِيْرًا لِنَفْسِكَ مِمَّا عَلِقَ بِهَا مِنْ غِبَارِ يَوْمِكَ . وَنَمِّ
عَلَى وَقَعِ تِلْكَ الْأَهَازِيْجِ الْعُلُوِيَّةِ ، سَابِجًا فِي أَحْلَامِ طَيِّبَةٍ كُلُّهَا
رَوْحٌ وَرِيْحَانٌ .

اعْمَلْ بِتِلْكَ السَّنَةِ لَا تَنْحَرِفْ عَنْهَا يَوْمًا ، وَاتَّخِذْهَا لَكَ مِنْهَجًا وَإِمَامًا ،
وَانْظُرْ كَيْفَ تَصِيرُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ ، وَكَيْفَ يَتَكَامَلُ لَكَ حِظُّكَ مِنْ

سعادة النفس ، ونعيم الرُّوح .

ولا تنسَ هذا القرآن العظيم في غُدُوِّ ولا رواحٍ . . . فإنَّ أَلَمَّتْ
نازلةً ، أو حَزَبَ أمر ، فاجعل من آية لك مَفْزَعًا تستظل فيه من حرِّ
ما تجد ، وإنك لشاعر من ساعتك بأنَّ النِّعْمَةَ لا سلطان لها عليك ، وأنَّ
لك جَلَدًا لا يَهِنُ ، وعزيمة لا تخور .

أخى المؤمن :

مزيةٌ جلييلةٌ لك أن يكون ذلك الذخر الخالد من كلام الله تُراثًا
دائمًا منك ، تلتمس فيه علاجَ نفسك ، وصفاءَ رُوحِك ، وتمتلك به ناصية
السعادة بمعناها الأسمى . ذلك لأن هذا القرآن الكريم ينأى بك عن
مكاره الأرض ، ليصلَ بينك وبين السماء !

إلى شلالات "نياجارا"

الحجُّ إلى المواطن الفريدة مختلفٌ ألوانه .

فمنه حجٌ دينيٌّ إلى البقاع المقدسة ، يلتبس المرء فيها شفاء النفس ،

وصفاء الروح .

ومنه حجٌ رياضيٌّ إلى ميادين الإرتياض ، يطلب المرء فيها حقَّ

بدنه عليه ، ويتغنى الزهدة والسلوى .

ومنه حجٌ ثقافيٌّ إلى دُور العلم ، ومجامع الرأي ، ومعاهد الفكر ،

يتزود فيها المرء زاد المعرفة ، ويقتبس نور الحكمة .

ومن الحجِّ أنواعٌ تعزُّ على الإحصاء ، فيها للنفوس غذاء ، وللأذهان

متاع .

فأما الحجُّ إلى شلالات « نياجارا » فهو فيما أرى حجٌّ شاملٌ يحتوى

دواعي الحجِّ ومزاياه جميعاً . . .

فيه من الدين قِبْسةٌ ، ومن الرياضة نَفْحَةٌ ، ومن العلم طَرَفٌ .

وإني لأسميه حجًّا إلى موطن الجمال الأصيل ، ومظهره الأسمى . إذ أن

الجمال هو غاية المثل العليا في صحة الأبدان والأذهان والأرواح .

يقف الصوفيُّ المتعبدُ أمام شلالات « نياجارا » ، فيستشعر إزاءها

رُوحَ اللَّهِ ، وَيُؤْنِسُ مِنْ جَانِبِهَا قَبَسًا مِنْ نوره الأزلَى ، ولا يلبث أن تتجلى له عظمة الخالق ، وضآلة المخلوق .

ويُسْرِحُ الباحث نظره في تلك البقعة الشمالية من الدنيا الجديدة ، فيرى ذلك العباب تتلاطم أثباجه ، وتتخبَّط أمواجه ، وكأن هديره الصخَّاب يقصّ على الكون أحداثَ تلك البقعة التي شهدتْ هَنودَهَا الحُمْرَ مقيمينَ على أرباضها يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ هذه الشلالات ، ويقدمسون اسمها ، وينصبونها إلهًا جَبَّارًا له الطَّوع والإِذعان ، فلا يفوتهم في كل عام أن يزدلفوا إليه بقُرْبَانِ نَفِيسٍ ، عذراء من رَبَّاتِ الفتنَةِ والسحر ، يُلْقُونَ بها إليه ، ليُسبغَ عليهم بركةَ الرضا والغفران .

وإن رُؤَادَ الطبيعة ليشهدون من هذه الشلالات مَنظَرًا عَجَبًا ، فيتساءلون : كيف انخسفت الأرضُ في هذه البقعة ؟ وكيف تدفَّقَ فيها الماء ، فراح يَشُقُّهَا شَقًّا ، وَيُخَلِّفُ فيها ضُروبًا من الجزائر والبَطَائِحِ والوهاد ؟

وأما هُوَاةُ الرياضة وطلَّابُها فحسبهم من هذه الشلالات رَوْعَةٌ المشاهد ، وطيبُ الأهوية ، وسكينةُ المكان .

تناهى ذلك إلى أسماعنا ، ونحن في « نيويورك » . . . فهاج أشواقنا إلى الرحيل ، قَصْدًا إلى الشلالات .

وما إن بنينا عزمنا على السفر حتى أعددنا العدة لهذه الرحلة ، وخرجنا عند انبلاج الصبح إلى « محطة سنترال ترمفال » في قلب المدينة وأنت إذا شارفت المحطة فلمحت بناءها السامق ، حسبت أنك

دالِّف إليه ليحتويك قطار الرحيل ، ولكن شدَّ ما يروُّعك أن تعلم أن هذا البناء على سُمُوقه ونخامته ليس إلا تاجاً للمحطة يعتلي رأسها . وأما المحطة نفسها فهي سارية في أطباق الأرض ، ضاربة في أعماقها . تهبط إليها ، فإذا أنت تتحدَّر في ناطحة سحابٍ مقلوبة !

ما أجدَر هذه المحطة بأن تُسمَّى مدينةً وحدَّها ، فهي طبقات بعضها تحت بعض ، لكل طبقة طُرقات وأبهاء وِرْداء ، وفي كل طبقة متاجر ومطاعم وأندية ، ولكل طبقة مسالك تغدو فيها قطاراتها وتروح . وعلى ذلك كله طابع من التناسق والنظام يأخذ بالألباب !

تستضيفك هذه المدينة ، فيروِّقك أن تجوب فيها ، وترحل بين جوانبها ، رحلةً ربما صرفتك عن رحلتك المقصودة .

وأخيراً ألا تجد بداً من أن تستهدي إلى قطارك ، فإذا دُللت عليه دخلته في سلامة الله . ويتحرك القطار كأنه يسبر غور الأرض ، فتحس به يشقُّ جوفها شقاً ، ويلتمس له من ضيقها مخرَجاً .

ويبلغ القطار مآربه ، فيخرج على ظهر الأرض ، ميمماً صوب الشمال تستقبله أفواجُ الضوء .

ويعضى القطار لطيفته ، وهو ما برح في مناكب « نيويورك » تلك المدينة الشاسعة التي تبسط ذراعيها ، فتحتضن المرامي الفساح .

وإنه ليخيِّل إليك أن القطار كلما أمعن يفتهب الطريق ، أمعنت المدينة في مجاراته ، فكأنما هما يتسابقان ، كفرسى رهان ! . . .

وبعد لأي يستخلص القطار أذياه من نخال تلك المدينة التي

تمتد ميامينها ومياسرها ، حتى لتكاد لا تدعُ لغيرها شبراً من المعمور .
ما ظنك بعشر ساعات في القطار بين « نيويورك » ومدينة
الشلالات ؟ إنك لحاسب لها حساباً عسيراً من الملالة والضجر ، ولكنك
تدهش إذ تتواصل بك هذه الساعات ، وأنت رافهٌ غيرُ ملول
ولا متضجر . وربما كان مرّد ذلك إلى ما يتوافر في القطار من جلسةٍ
رَخِيّة ، وأسباب للراحة كافلة ، وما تُطالعُك به النافذة من مشاهد للمدائن
الصناعية الزاخرة بالحركة والنشاط .

وإن القطار ليُسلمك إلى مدينة الشلالات ، وقد أدبرَ عنها النهار ،
فما إن تبارحُ المحطة إلى الطريق العام حتى تشهد مواكب الأضواء في
غير إزعاج ، وتستشعر أول وهلة ذلك الهدوء الشامل ، ويتجلى لك
ما طبعَتْ عليه المدينة من رشاقة ورقة ، فلا يلبث ذلك أن يلهيك عما
قضيت من ساعاتك العشر الطوال ، وإذا أنت ماض في المدينة تذرّع
جوانبها مستوعباً ما فيها من مباحج ومُتَع .

أكان خليقاً بنا - بعد عشر ساعات في قطار سيار - أن نأوى
على التو إلى حجرتنا في الفندق ، نبتغي لأنفسنا الراحة والدعة ؟
لعمرك ما كان لنا وقد أخذنا إلى السكون على مقعد لا نريه طوال
مرحلة القطار ، إلا أن نطلق أقدامنا من عقالها ، وأن نروض أجسادنا
على الحركة والانتقال في ذلك الجو الرحيب .

بلدة الشلالات أنيقة رشيقة ، سامت من شواهد تتسامى فتنطح
السحاب ، أو تتهاوى فتدرك الأرض السابعة . . .

بلدة قوامها شارع عظيم تتفرع منه يمئة ويسرة بعض المسالك
والطرق ، لا يُعيبك أن تُلمَّ بكل ما فيها أثناء جولة أو جولتين في ساعةٍ
أو بعض ساعة .

هي بلدة سيّاح ، يتوضّح طابعُ السياحة الأصيل على متاجرها
ومطاعمها وأنديتها وسائر مرافق الحياة فيها .

وحيثما ترجعُ البصر في أطرافها تطالعك الحدائق الفسّاح ،
والغابات الرّحاب ، والجزائر والجسور ، كأنها لوحٌ تقنن رسامه في تحيّر
ألوانه الزاهية .

وإنك لتسير في مسالك هذه المدينة ، فإذا أنت تقف في الفينة
بعد الفينة تُنصتُ إلى ذلك الدويّ الذي يصفح سمعك ، لا تعرف له
مأثري ، كأنما هو هتافات تتجاوبُ بها الآفاقُ من بعيد ، فتحسُّ لها هزةً
ورهبّةً ، ولا تملك إلا أن تُمعن في الإصغاء لتستجلى ذلك النداء الخفي .
ما هو ؟ وما خطبه ؟ وكأن دافعاً مجهولاً يثير فيك الشغف والتطلع .

ويتهيأ بك الطواف إلى الفندق ، فتحتويك حجرتك ، وتلقني
بنفسك على مرقدك ، فإذا الصوتُ يلاحقك ، ولكنه يزداد من وضوح
وجلاء ، فتجد إحساسك كله قد تجمّع في سمعك ، لتتلقني به تلك الترنيمة
التي يعمرُّ بها الفضاء ، وكأنما هي صوت الطبيعة يشدو ممجّداً عظمة الله . .
وتراك قد أسبلت جفنيك ، يتغشاك سبات عميق .

ويدركك الصباح ، فتغادرُ الفندق طوعاً لذلك الصوت الذي ما برح
يناديك ، وتدع لقدميك أن تنطلقا ، فإذا بهما تحملانك إلى تلك الحدائق

العامرة ، قائمة على جُزُرٍ وأشباهِ جزر ، وقد ترمى تجاهاً بساط من الماء
ينحسرُ البصرُ دونَ مُنتهاه .

وإنه لماء عجيب الأطوار ، تارة هو رقيقُ الجِريّةِ ، وتارة هو أهوجُ
عرييد ، يراقصُ بعضه بعضاً ، كأنما يتوالتبُّ على دَرَج .

وتخترق الحدائقَ والغابات ، تملأُ عينيك من مفاتن الطبيعة
المبترجة . . . تلك التي تتخذها هناك في فصل الخريف منظرًا بدعاً ،
وروثاً عجبا ، إذ تكتسي بذلك الرداء البهيج المختلفة أنواعه .

وأكبرُ ما يرموعك مما ترى ذلك البحرُ المديد من أوراق الشجر
يغطّي أديمَ الأرض كله . . . بحر ضحل لا تخشى فيه غرقاً . قدماك
تخوضانه ، فتسمع لأواجه خشخشة كأنما هي حديث ومناجاة .

ولا تفتأ تسير وأنت تخوض هذه الأمواج من الورق ، في فرحة
الطفل اللعوب . وتشعر في مسيرك بالشجر ينفضُ عليك نثارَ أوراقه ،
فكأنما هو رذاذ يتساقط عليك في كل خطوة تخطوها ، فلا تني تميّطه
عنك لتمضي في الطريق . . .

وحيثما قلبتَ النظر استقبلتك الطبيعة بزینتها : أشجار ما برحت
مُخضرة زاهية ، وأخرى نصلت ألوانها بين صفرة وحمرة ، وأشجار
تعرّت من أوراقها ، فهي تتجمّع وتتكشش أمام هبات النسيم ، كأنما
تستخفي عن أعين الرُقباء . . .

شدّ ما تتباين ألوان الطبيعة في حدائق تلك المدينة ، وكأن النبات

وهو يُودّع فصل النور والتفتح يرغّب قبل استكائه في فصل البرد أن
يسخو بكل ما في جعبته من فتنة ورونق

أليس من مفارقات الطبيعة أن تبدو الأشجار عريانة في فصل
البرد، كاسية في فصل الربيع؟

أمعِن فكرك ملياً، يُسفر لك السر... إن هي إلا خطة مرسومة
وفق نظام طبيعي دقيق: الشتاء جهامة وأهوية، ما أقلّ ساعات النور
فيه، فالناس في معتكفاتهم يصطّلون، لا ثم لهم إلا النجاء من وطأة البرد
وقشعريرته، فهيات منهم التفات إلى زهرة تنضّر، أو شجرة تُورق.
فقيم تزين الأشجار، وتتجلى بالأزاهير؟ ولم تبرج الطبيعة وقد
أقفرت المسالك من العيون؟

فأما فصل الربيع ففيه تسطع الأضواء، ويطول عمرها في فسحة
النهار، وفيه تعادل الأجواء، ويطيب الهواء. فلا يملك الناس إلا أن
يخرجوا أفواجاً يملئون الرّحاب، ويرسلون الطّرف متملياً محاسن الكون
ومفاتيح الطبيعة. وإذن فقد آن للشجر أن يتبرّج، ليتصيد الأبصار،
ويَسبي الألباب!

ليست الطبيعة إلا غانية، قصارى همّها أن تنصب حبالها في
أنسب الأوقات، اختلاباً للقلوب، واجتذاباً للإعجاب.

هأنت ذاتمضي في طريقك، فتجس أن قدميك تسيران بك في
نهج معلوم، إلى غاية مرسومة. وكلما قطعت شوطاً توضّح الهدير،

واستبان عَصْفُه ، فإذا أنتَ خافقُ القلبِ واجِفُه ، وإذا أنتَ تَحْتُ خَطَاكَ
مخترقاً تلكَ الحدائقَ والمنازهَ .

وتصحو وَيُيدَأُ من نَشْوَتِكَ ، فتعرف أنك لستَ في هذا المكانِ
بأوحدٍ . . .

هنا وهناك زوَّار غير قليلين ، ليسوا وُحْدَانًا ولا زَرَافَاتٍ ، وإنما
هم أزواج من ذكرٍ وأُنثى ، كلُّ اثنين خاليان لنفسيهما تحتَ عريشٍ أو خلفِ
ظِلَّةٍ ، أو ترَاهما مفرشينَ ذلكَ البساطَ الطَّرِيفَ من ورقِ الشجرِ . وجوههم
جميعاً نَوَاطِقُ بالطلاقة والبشر ، فهم يستمرُّون أزهى ساعاتِ العيشِ ،
وأحلى أوقَاتِ الحياةِ .

إنهم في مستهلِّ أيامِ العُرْسِ .

وَمِنْ نَمِّ لَقِبَتْ تلكَ المدينةُ بمدينةِ «شهر العسل» . يَخِفُّ إليها
الأزواجُ الجُدُّ أفواجاً يغمُّونَ فيها متاعاً وبهجة . وهل يجدون لأعراسهم
مَثَابَةً أروعَ من تلكَ المثابة التي خلعتَ عليها الطبيعةُ أنفُسَ هبَاتِهَا ،
وخصَّتها بأجملِ نفعاتها ، وكسَّتها صِبْغَةً من السكينة والهدوءِ يَعِزُّ
وجودها في ذلكَ الوطنِ الأمريكيِّ الصاخبِ العجَّاجِ ؟

وأنتَ إذا تباطأتَ خطَاكَ ، لم يلبث الصوتُ الهدَّارُ أن يستحثَّكَ
على المضيِّ غيرِ وان ، حتى تبلغَ المكانَ المقصودَ وهناك يتبينُ لك أنك
على رُبُوَّةٍ ترتقي دونها المهاوى البعيدة ، وعلى عَيْنِكَ وشمالك تنصبُّ
اللُّجَجُ في تلكَ المهاوى غاضبةً فوَّارة . وإن هذه اللُّجَجَ لتقذفُ بنفسِها
قذفاً ، كتائبَ كتائبٍ ، يزحمُ بعضها بعضاً في مصاولةٍ وغلاب .

وإنك لتشهد ذلك الصراع الفريد ، إذ تحرص كل كتيبة من
الموج على أن تسبق غيرها في الظفر بتلك القفزة الرائعة على صدر النهر
السحيق . وما هي إلا أن تحس في نفسك نزعة إلى مجارة هذه الكتائب
المتنمرة ، طلباً لتلك النشوة العظمى ، نشوة الوثب والإنطلاق .

وإذا أرسلت بصرك ترقب الكتائب ، وهي تتساقط في حميتها
ونشوتها ، بهرك منها ما تلمح من أجزرة ناصعة ، تتخذ منها الشمس
غلائل ترسم عليها قوسها القزحي بأصباغه الزاهية ، وألوانه الفاتنة .
ولا بد أن يستبد بك الشغف فتطمح نفسك إلى رؤية تلك الكتائب
المتحاربة في مستقرها ، حيث يستقبلها النهر ، ويفسح لها في مجراه
طريقاً للخلاص .

وإذا فعليك أن تتجهز لمغامرة صغيرة مأمونة ، تتذرع فيها بما
يقيقك البلل . إذ أن مكانك هناك عن كشب من حوض النهر ، تنهمر
دونه فلول من تلك الكتائب الهاوية .

وحسبك في هذه المغامرة أن تكتسى رداءً سابغاً من المطاط
يشمك من الرأس إلى القدم ، فكأنما أنت قادم على صيد بحري عظيم
الخطر .

فإن هبط بك المصعد ، واحتواك شاطئ النهر ، فأنت من الموج
المتساقط تجاه ستار غليظ أو غمام كثيف ، راعب صوته ، كأنما هو
زئير جحفل لجب ، من سباع ضارية ، في فلاة موحشة . أو لكانه
بركان قد ثار وفار ، وزاح يقذف بالحمم ، ويرمي بالجنادل والرجم !

يَا لَهْوَل . . . أهذا يومُ الحُشْرِ ، وتلك أصواتُ الخلائقِ في ضَجيجِ
وعَجيجِ ؟ .

هذه هي الشَّلالاتُ الأمريكية ، وذلك هو الشاطئُ الأمريكي . . .
وعلى مَدِّ البصرِ يترأى لك الشاطئُ الكنديُّ بشلالاته . وقد
لا تَقْتَنِعُ بما شهدتَ من ذلك الشَّطْرُ ، فتأبى إلا أن تستكملَ متعتك بما
هنالك ، فتعبرَ النهرَ على جسره العظيم ، « جسر قوس قزح » ، وبذلك
تنتقل من وطن إلى وطن ، وتنفصل عن أُمَّة إلى أُمَّة . . .
أرض جديدة ، ومدينة تلقب بمدينة « الشَّلالات الكندية »
يظللها علم آخر ، وتقوم عليها حكومة أخرى . . .

لقد اقتسمت « بريطانيا » و « أمريكا » هذه الشَّلالات ، فكانت
بينهما مُنَاصَفَةٌ ، ولكن الطبيعة لا تعرف ذلك التقسيمَ السياسيَّ ،
ولا تُقِيمُ له وزناً . . .

ليست بلدةُ الشَّلالات الكندية إلا صورةً من بلدة الشَّلالات
الأمريكية ، أو هي تكلمةٌ لها . ما تجده هنا تجدُ مثله هنالك ، حتى رشاقة
الدور ، ونظام المسالكِ والحدائق .

على أن روعة الشَّلالات الأمريكية لا تتجلى واضحةً المفاتن إلا حيث
يأخذها بصرُك من الشاطئ الكنديِّ . وأروعُ ما تكون إذا دجأ الليل ،
وراحت تكتسى من سواطع المصابيح الكهربائية المختلفة الألوان ، حلَّةً
رفافةً ساحرة . . .

هنا تتراوَجُ صِبْغَةُ الطبيعة وصنْعةُ الإنسان ، فيتألفُ من ذلك

التزواج مَنظَرٌ يسمو بك من حدود الحقائق الواقعية إلى آفاق الخيال .
وكأنك ، وأنت ترقُب هذه الشلالات تحت الأضواء الباهرة ، قد
امتطيت الجوادَ الطائرَ المسحور ، فطوّح بك في عوالم خَفِيَّةٍ من خلقِ
الأساطير . ولا تلبث أن يُخَيَّلَ إليك أنك تشهد « جَجِيمَ دَانْتِي »
وأن هذا الماء الثائر الوهاج الذي تتعدّد ألوانه ليس إلا جانباً من جوانب
تلك الجحيم ، تلهب شعاعها ، ويتصعد دخانها ، ويدوى زفيرها . بيد أنها
جحيم طيبة مأمونة ، لا تُشعرك خوفاً ولا رهباً ، ولا يصيبك من
نارها شواظ . . . وإنما تملأ قلبك فتنّة وروعة ، وتثير بين حناياك
عبادةَ الجمال .

وإنك لتظنُّ في وَقفتك ، غافلاً عن وقتك ، يجول بك جوادُك الطائر
في مملكة الخيال الرَّحيب ، منتقلاً من أفقٍ إلى أفقٍ ، يعرض عليك
أفئتنَ ما في الوجود من مناظرٍ وصُور .

وما تزال في غفوتك ، بل في نشوتك ، حتى يتلطف لك نسيمُ
الليل ، فيعابثك بلمساته ، فتصحو من أحلامك راجعاً إلى دنيا الواقع ،
وتتفقد دثارك لتُحكِمَ وضعه على كتفيك ، وتدفع بخطاك إلى مستقرِّك ،
و كأنك آيبٌ من سفرٍ بعيدِ الشُّقة ، جُرّت فيه بآمادٍ من الحِقَبِ الخوالى .
ويستضيفك مكانك من الفندق ، فتمضي متصفحاً تلك المصورات
التي تقصُّ عليك نبا الشلالات ، وتمثّل لك مفاتيحها ، فيستدعى بصرك
منظرها تحت وطأة الشتاء .

هذه الكتابُ الصَّخابة العرييدة من الموج يكبجُ جماحها البردُ ،

فتنقلبُ كِتْلًا صَمًّا ساكنة . بيناهي متأهبة لوثيتها الجريئة ، إذا هي
قد جمدت بغتة ، واستجبال ماؤها السَّيَّال صَفَاحٍ من صُخْرٍ أَمْلَسَ .
إنها ما بَرِحَتْ في وضعها المائي تُوَاصِلِ التَدْفُقِ ، إلا أن كِتَائِبَهَا
وهي في مَهْبِطِهَا قد بَطَلَتْ حَرَكَتِهَا ، وتَمَاسَكَتْ متعلقاً بعضها ببعض ،
كأنما قد فَجَّأَهَا ما يَرُوعُ ، فوَقَفَتْ مستسلمةً ليس بها حَرَكَ .

وإن منها كِتَائِبٌ أدركها القَرُّ ، وهي في رأس الشلال على وَشَلِكِ
الإنحِدَارِ ، فلبثت معلقة على فَمِ الهاوية ، لا هي بقادرة على أن ترتدَّ ،
ولا هي بقادرة على أن تُوَاصِلَ وَثُوبَهَا إلى القاع . هي من أمرها في حيرة
ودَهَشٍ ، تَمَيِّزُ غَيْظًا من عجزها وجودها . وهام أولاء رُوَادِ الشلالات
الذين كانوا بالأَمْسِ يَرْهَبُونَ سَطْوَتَهَا ، ويحاذرون الدنوءَ منها ، تراهم اليوم
يتواثبون على مُتُونِهَا في غير محاذرة ولا رَهَبٍ ، يسخرون من جمودها ،
ويشمتون بعجزها !

وثمة كِتَائِبٌ أخرى ، باغتتها البرد في منتصفِ المَهْوَى ، فجمدت
وانسَدَّتْ دونها المسالك . تبدو بقوامها الفارع مصلوبةً شُدَّتْ رعوسها
بأمراسٍ إلى الحافة ، وجذبت أقدامها إلى قرارة الهاوية ، فهي مائلة في
أغلاها تنتهبها العيون !

ما من كائن حيٍّ إلا له وقتُ راحةٍ ودَعَاةٍ ، فهل تأبى هذه الشلالات
حُكْمَ الطبيعة ، وتَضَيِّقُ بحكمة الوجود ؟

إن الشتاء لِيُتِيحُ لها فرصةً للصمت والهجوع ، تستجم وتستجمع ،
متهيئةً لِصِرَاعِ جديد .

ليس منظر الشلالات شتاءً بأهونَ من منظرها في الصيف ،
ولكن المرءُ ولوعٌ أبداً بالحركة والصخب ، يؤثرها على الجمود
والتوقف ... ومن ثمَّ كان الصيف هو الموسمَ الأعظمَ لبلدة
الشلالات .

توافقُ على هذه الشلالات ألوف مؤلفة من الخلائق ، يحدوهم
الشوق والتطلع ، وتجذبهم مغنطيسية عجيبة تكمن في تلك الأمواج
الزواجر . وكأنَّ هذه المنطقَةَ الفريدة كعبةٌ يتعبَّد لِسِحْرِها البشَر من
كلِّ جنس ، ومن كلِّ صُقع .

ولم يُعوزْ هذه الكعبة ما يتوافرُ لمختلف المعابدِ والمواطنِ المقدَّسة
من ألوان الزُّلْفَى وصنوفِ القرابين ...

فإذا كانت المدينةُ العصرية قد اكتسحتُ أمامها عادةَ الهنود
الحمرِّ الذين كانوا يزدلفون إلى الشلالات بعرائسَ يجلُّونها لها في الحوَل
بعد الحوَل ، فإن البشرية ما زالت تقدِّمُ من ذاتِ نفسها قرُباناتٍ لذلك
المعبود العظيم !

ثمَّةَ عن كُشْبٍ من رأسِ الشلالات جِسْرٌ يلقبونه «جسرَ الانتحار» ،
يتهاوى منه الناس إلى الشلالات ، فيتفانون فيها ... وقد سجَّلَ الإحصاء
جملةً من الخلق يُلقون بأنفسهم إلى المهوى كلَّ عام .

تُرى هل يدفعهم إلى ذلك ضيقُ بالحياة ، ونوؤُ بالهموم ؟
أو هو دافع كمين من سحر الشلالات يحدوهم على أن يبذلوا أنفسهم
في سبيل الموج ، ملتَمسين تلك النشوةَ الشائقة ، نشوة الوثبة العظمى ،

والإندماج الأكبر في تلك الكتابِ العارمة التي ينطوي ركبها الجبار
على الغازِ وأسرار ، بعيدة المرمى ، عَصِيَّة المنال ؟ !

مرَّتْ عَجَالاً أَيَّامُنَا فِي « نِيَا جَارَا » ، وَرَجَعْنَا مِنْ هَذِهِ الْحِجَّةِ قَدْ أَدَّيْنَا
لَهَا شَعَائِرَهَا مِنْ زَوْرَةٍ وَمَطَافٍ ، تَارِكِينَ لغيرِنَا مِمَّنْ مَلَكَتْهُمْ صُوفِيَّتُهَا
أَنْ يَقْدُمُوا لَهَا الْقُرْبَانَ !

الورد في « مونترو »

نحنُ المصريين نذكُر « مونترو » ونحفظُ لها في أعماق النفوس
جميلاً . . .

في هذه البقعة الكريمة تَمَّتْ المعاهدةُ التي تخلصتُ بها « مصرُ »
من وَصمةٍ مَعِيبةٍ ، وصمةٍ ذلك الوضع العجيب الذي كان يفرض علينا قضاءً
أجانبياً يَشْمَخُ على قضائنا الوطني .

ولسنا نحن وحدنا الذين نذكر « لمونترو » جميلاً العظيم ، فإن
العالم كله يعرف لهذا البلد الطيب أنه المثابةُ التي يفسح صدرها لمختلف
المؤتمرات الداعية إلى خيرٍ ومُصافاةٍ وسلام . . .

كأنما بُسِطَتْ هذه الرُقعةُ من الأرض ، لتدوبَ في رِحابها أسبابُ
الخلفِ والخصام ، فلا تتركها الوفودُ إلا وقد تصاحفتُ الأيدي ، وتعاقدتُ
القلوبُ على محبةٍ ووئام . . .

لم يكن محضَ مصادفةٍ أن تُكَلِّمَ مؤتمرات « مونترو » بالنجاح
والتوفيق . فإنني لزعيم بأنه لا يبوءُ فيها مؤتمرٌ بإخفاق ، مهما تستحکمُ
دواعي الشقاق .

هذا الجو الذي يَشِيْعُ فيه الدَّفءُ الوداع . . .

تلك المشاهد الرائعة التي تتبرَّجُ فيها الطبيعةُ بِحُلَاها الفواتن ،
من مروج تمَّوج بالكروم ، وجبالٍ تُورِق وتتنَضَّر . . .
هذه البُحيرة الساجية التي تنبسط صفحتها في إشراق وابتسام . . .
ذلك الممشى البَحْرِيّ الأنيق « الكورنيش » تظللُهُ العرائش ،
وقد تدلَّت منها الرياحين . . .

أليس في مقدور هذه المفاتن مجتمعةً أن تُفْرِغَ السكينةَ على القلوب ،
وتُشيعَ الصفاءَ في حنايا النفوس ، فلا أعصابَ تثور ، ولا بغضاءَ تتلَطَّى ؟
وإذا عُرِفَتَ اليومَ « موترو » بأنها مدينةُ المصالحاتِ وفضِّ
لخصومات ، فإنها كذلك مُصْطَافِ نادرٍ يصطفيه الملوِكُ والأمراءُ من
حَمَلَةِ التَّيجانِ وأصحاب العروش ، أو ممن كانت لهم تيجانُ أزالتها الأحداث ،
وعروشٌ أدلتها الأيام .

وهي كذلك مَهْوَى أفئدةِ ملوكِ آخرين ، تيجانهم من ورق النقد ،
وعروشهم مؤسسات ومصانع . أولئك هم جبابرةُ التجارة والصناعة ،
والطُّغاةُ المهيمنون على أسواقِ المال .

في ذلك المأوى الظليل الذي تأتلف فيه الحُمائلُ فوَاحَةَ العطر ، يَنعَمُ
هؤلاء المكدودون العظام بأويقات راحةٍ وانطلاق . . .

هنالك يَحْيُونَ حياةَ عامة الناس ، فيضعون جانباً ما يَعتاقهم من

قيود التكاليف والمراسم والأوضاع

لا تيجانَ تنوءُ بها الرؤوس .

لا أوسمةَ تضيقُ بها الصدور .

لا فَرَضَ لِيْزِيٍّ مَحْتَوْمٍ فِي عَشِيَّةٍ أَوْ غَدَاةٍ .
إنما هي نَزْعَةُ طَّلَاعَةِ إِلَى الْفِرَارِ مِنْ أَثْقَالِ الْهَمِّ ، وَأَحْجَالِ التَّسْبِغَاتِ .
إنما هي رَغْبَةٌ عَارِمَةٌ فِي نَسْيَانِ أَنْهَمَ عُظْمَاءُ !
أَنْتَ إِذَا جُرِّتَ خِلَالَ الطَّرِيقَاتِ فِي « مَوْتَرُو » تَغَشَى فَنَادِقَهَا
وَمَشَارِبَهَا وَمَا يَتَنَاثَرُ فِيهَا مِنْ أُنْدِيَةِ اللّهُو ، لَا يُعْيِيكَ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ هَذَا
هُوَ الرِّكْنُ الْمُخْتَارُ لِذَلِكَ الْأَمِيرِ ، وَأَنَّ تِلْكَ الزَّوَايَةَ يَسْتَأْثِرُ بِهَا ذَلِكَ الْعَظِيمُ .
وَمِنَ الطَّرِيفِ لِشَرْقِيٍّ مِثْلِكَ أَنْ يَتَنَاهَى إِلَى سَمْعِهِ هُنَاكَ تَهَامُسُ
النَّاسِ بِأَنَّ هَذَا الْفُنْدُقَ يَتَّخِذُ زِينَةَ قُصُورِ « أَلْفِ لَيْلَةٍ وَوَلَيْلَةٍ » مَرَّةً كُلَّ عَامٍ ،
إِذْ يَنْزِلُ بِهِ ذَلِكَ الْعِطْرِيُّ الشَّرْقِيُّ الْكَبِيرُ ، فَيَقْضِي فِيهِ « شَهْرَ الْغَسْلِ »
مُصْحُوْبًا بِعُرُوسَةِ الْجَدِيدَةِ ، مُسْتَمْتَعًا مَعَهَا بِاللَّيَالِي الْمَلَّاحِ .
هَذَا حَقًّا « شَهْرِيَارُ » الْعَصْرِ الْحَدِيثِ ، يُعِيدُ إِلَى الْأَذْهَانِ عَهْوَدَ
« شَهْرِزَادِ » . . .

وَكَمْ فِي « مَوْتَرُو » مِنْ طُلَّابِ صَبْوَةٍ ، تَتَبَّيْنُ فِيهِمْ شِمَائِلُ مِنْ
« شَهْرِيَارِ » !

وَكَمْ فِيهَا مِنْ ذَوَاتِ فِتْنَةٍ ، تَتَوَضَّعُ فِيهِنَّ مَخَائِلُ مِنْ « شَهْرِزَادِ » !
وَأَنْتَ إِذَا شِئْتَ أَنْ تَضَعَ « لَمَوْتَرُو » تَعْرِيفًا مُوجِزًا ، فَقُلْ :
هِيَ فَنَادِقُ وَسِيَّاحٍ ... حَتَّى إِنَّهُ لِيَتَرَاءَى لَكَ أَنَّ الْمَدِينَةَ بِيُوتِهَا خَانَاتُ ،
وَأَهْلُهَا ضِيُوفٌ نَزَلَاءُ !

إِنَّهَا تَجْمَعُ شَتَّى الْأَجْنَاسِ ، فِيهَا مِنْ صُنُوفِ الْبَشَرِ مَا لَا يَخْطُرُ لَكَ
عَلَى بَالِ ،

هنالك إنسان الشمال يساير إنسان الجنوب .
هنالك مَعْرِضٌ دائمٌ من الأسمر والأشقر ، ومن الأحمر والأصفر ،
إلى غيرهم من ذوى الصور والألوان .
ولكن المدينة الآن على الرغم من ذلك يستأثر بالغلبة فيها
عنصرُ « الأمريكان » . . .

فيها تجد « أمريكا » كامنَةً في كلِّ ركنٍ ، مُطلَّةً من كلِّ أفقٍ . .
فلو أنك هزَّزْتَ غصنَ شجرةٍ ، في خمائلها ، لهبَّطَ عليك أمريكيٌّ
كان يُزاحمُ الأطيَّارَ في الأوكار !

هذه البلدة الصغيرة التي يتبناها سفحُ جبل متواضع ، قد استطالت
على « أمريكا » بلدِ الشواهِقِ والشوامخِ ناطحاتِ السَّحَبِ !
يهرعُ الأمريكيُّ إلى « موترو » ليصيبَ فيها جوهراً يعزُّ عليه
مناله في وطنه العظيم . . .

ذلك الأمريكيُّ تطحنه الآلةُ الصاخبةُ بلا رحمة ولا هدنة ولا مهمل ،
كما تدور الدوامة العاتيةُ في عُبابِ زاخِرِ .

وإنه ليفزع إلى « موترو » ليتلمسَ في أرضها ذلك الجوهَرَ العزيرَ
من التَّراخِي ، أو ما يسمونه « الرِّيلاكْس » ! .

في حِضْنِ الطبيعة الحنونِ ، بلا صنعة ولا زخرف ، تبيع « موترو »
للأمريكيين مُشعَّةُ « التراخي » ، وهم الراجحون ، مهما يبذلوا من
الهيئل والهيئلان !

ولكن « موترو » فوق ذلك كله تتميزُ بأنها بلد الورود . . .

الوردُ في كل مكان ، يصافح عينيكَ بِمِرْآةٍ ، ويمارِجُ أنفاسَكَ
بِطِيبِ رِيَّاهِ !

تراه منشورا على صَفَحَاتِ التَّلَالِ ، بهيِجَ الألوانِ . . . بل إنه ليتسلَّلَ
إلى المسالكِ والدروبِ ، يكسوها بنسيجه من المُخْمَلِ والذَّيبَاجِ .
تراه يُشْرِفُ من النوافذِ مَرُوهً في الأَصْصِ الأنيقةِ ، يُحْيِيكَ ويتسمم
لك في إشراقِ .

الشُّرُفَاتُ به حَآليَّةٌ ، فكأنما هو وَشْيٌ جَمِيلٌ تتبرِّجُ به الدُّورُ .
وَتَمَّةٌ ورد آخر في « مونترو » هو أَقْنَمُ ما حَوَتْ من ورودٍ . . .
زَهْرَاتِ آدَمِيَّةٍ ، تَعْلُو بِفَتْنَتِهَا وحسنها على كلِّ ما تُنْبِتُ الطبيعةُ
من رِيحَانٍ !

أينما تَلَفَّتْ اجتذبتُ ناظركَ زهرةً مُتَنَقِّلةً ، يَمَيلُ غصنُها الرَطِيبُ
من دَلَالٍ وإِغْرَاءٍ .

إنها زهرةُ الطبيعةِ الحَلْقَةُ ، تَجِيشُ فيها حرارةُ الحياةِ !
الورد في « مونترو » يتجلى في كلِّ شيءٍ . . .
الورد يتنصَّرُ في الحدودِ ، يُشِيرُ الفتنَةَ والسَّحْرَ !
الورد على الشِّفَاهِ ، ينسابُ رِقَّةً في الكلامِ !
الورد في النظراتِ : سِهَامٌ ناعمةٌ تَلْمِسُ شَعَافِ القلوبِ !
وأعجبُ ما يروءُكَ من هذه الزهراتِ الآدميةِ ما تتراءى فيه من
أشْتَاتِ الأزياءِ . فكلُّ زهرةٍ ذوقُها فيما تختار من ثوبٍ ، وإنها لتخترع
الصُّورَ والأشكالَ طريفةً الطَّرَازِ ، تكاد تسمو بها على آفاقِ الخيالِ .

أزياء النساء في « مونثرو » لا يحكمها تقليد ، ولا يضبطها نظام .
فهي تعبر عن نزعة الطلاقة ، ورغبة التحرر ، حتى لتبلغ درجة الشذوذ .
لكأنهن في محفل من محافل التنكر ، أبعثته ساحرات من
بنات الجن ، لا صبايا من بنات البشر

القمصان الحريرية الملونة تارة فضفاضة ، وتارة لصيقة . طوراً
كاسية ، وطوراً كاشفة . وإنما لتبسط على الأجساد أو تنحسر ، كأنها
أمواج البحر ، بين مدّ وجزر

يمينا إن هذه القمصان لكاذبة أبين الكذب إذ تدعى أنها أداة
ستر ، وآية صون . فإنها لتفشي جهرة أسرار الجمال الجاثمة على الصدور !
وثمة سراويل . . . لا تدري أي نوع هي ؟ سراويل متوهجة
الألوان أو وادعة ، بين قصيرة وطويلة . . . تنكش وتتقلص ، حتى تدع
مفاتيح السيقان نهبا للعيون ؛ وتبدو سابغة مواجة ، فتثير الشغف ، وتذكر
نوازع التطوع والفضول !

وثمة مناديل . . . مناديل هههافة على الرعوس ، رفاة بالوانها
الزاهية . . . كأنها تقص علينا صفحة جديدة من قصة الورود !
وأنت تنسى ولا تنسى منظرًا من أطرف مناظر تلك الزهرات
الآدمية في ذلك البلد الأنيس

أسراب منهن يعتلين الدراجات ، يتباهين بأثوابهن الغرائب ،
وينطلقن في نشوة ومراح ، فتلمحهن حمام طائرات ، تستروح من
خطراتهن أنسام الربيع !

صَحِيفَةُ الْخَائِبِينَ

«أمريكا» بلدُ الإِخْتِرَاعِ ، لا تِرَاعِ ...
هِيَ الَّتِي تَتَوَلَّى الْيَوْمَ مُوَافَاةَ الْعَالَمِ بِكُلِّ طَرِيفٍ مُبْتَكِرٍ ، جَلِيلِ النِّفْعِ
أَوْ تَافِهِ الْمَجْدَوِيِّ ...

فَالْحَيَاةُ الْأَمْرِيكِيَّةُ يَتِمُّثَلُ فِيهَا الْوَلَعُ بِالْإِبْتِدَاعِ وَالِاسْتِحْدَاثِ . وَمَنْ
كَانَ وَلُوعًا بِأَنْ يَبْتَدِعَ فِي كُلِّ مَنَحَى مِنْ مَنَاحِي الْحَيَاةِ ، وَيَسْتَحْدِثَ
فِي كُلِّ مَرْفَقٍ مِنْ مَرَافِقِ الْعَيْشِ ، فَإِنَّهُ لَا يَسْلَمُ مِنَ السُّخْفِ بَعْدَ السُّخْفِ ،
وَلَا يَضْمَنُ التَّوْفِيقَ فِي كُلِّ آنٍ .

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ ، فَقَدْ أَخَذَتْ «أَمْرِيكَا» عَلَى نَفْسِهَا أَنْ تَقْدِمَ
لِلْعَالَمِ عَلَى الدَّوَامِ وَالْأَثْمِ تَزْدَحِمُ فِيهَا أَنْوَاعٌ مِنَ الصَّحَافِ مُخْتَلِفَةُ الْأَلْوَانِ ،
مُتَبَايِنَةُ الطَّعُومِ . وَلِكُلِّ أَمْرِيٍّ أَنْ يَصِيبَ مِنْهَا مَا يَجِدُهُ لَذِيذَ الْمَأْكَلِ ،
طَيِّبَ الْمَذَاقِ .

وَهَآنَذَا أَصْفُ الْقَارِيءِ بِدَعَاةٍ أَمْرِيكِيَّةٍ جَدِيدَةٍ ، صَادِقَتُهَا فِي عَالَمِ
الصَّحَافَةِ مِنْذَ عَهْدٍ قَرِيبٍ .

إِنَّهَا بِدَعَاةٍ مُتَوَاضِعَةٍ غَايَةِ فِي التَّوَاضِعِ ، وَلَكِنَّهَا فِيمَا أَرَى بِدَعَاةٍ
لَهَا فِي مِيدَانِهَا شَأْنٌ عَظِيمٌ . وَمَا أَحَقُّهَا بِأَنْ تُتَّخَذَ نَمُودَجًا يُحْتَذَى

في ميادين أخرى غير ميدان الصحافة . . .
تساقطت إلى مجلة تُسمى : « مجلة القصص المرفوضة » ، فما
إن أُلقيت نظرة على صفحاتها حتى أَلَمَّتْ بِمَشْرِبِهَا ، وتبينت مُقْصِدَهَا .
هذه المجلة القصصية لا ينفصح فيها مجال النشر إلا لقصة سبق أن
رَفَضَتْ نشرها الصحف والمجلات !

وعلى رأس الشروط المطلوبة لنشر القصة المرفوضة أن تكون
مصحوبةً بشهادة من الصحيفة التي رَفَضَتْهَا ، تثبتُ فيها أن هذه القصة
حقا كان نصيبها الرفض . فالمجلة تأتي كلَّ الإباء أن تَفْسَحَ صفحاتها
لقصة لم تظفر بشهادة سقوطٍ وخيبةٍ مُصَدِّقٍ عليها من جهات
الإختصاص ! . . .

وليس من غرض هذه المجلة أن تنشر القصة جَبْرًا لخاطر مؤلفها
الخائب ، أو إعلاءً لشأنها ، ونَقْضًا لما صدر عليها من حكم . ولكن
المجلة ترمى إلى غرض تعليميٍّ كريم . فهي تَنَشُرُ القصة المرفوضة
مشفوعةً بنقدٍ فنيٍّ صريحٍ ، لا محاباةٍ فيه ولا دِهَانٍ ؛ يدبُّجُه كاتب من
أعلامِ النقاد . . .

وإن في هذا الصنيع لفائدةً عظيمةً لصاحب القصة خاصةً ،
وللقراء عامة .

فأما فائدته لصاحب القصة ، فهي :
أولاً : أنه يظفر بنشر قصته ، وإذاعة اسمه . ولا يَغُضُّ من
تلك الفائدة أن النشرَ والإذاعةَ في معرض الخيبة والإخفاق ، فقد

طبع كثير من الناس على حُبّ الظهور في أيّ مظهر . وإن هؤلاء
ليتشهون أن تُنشر أسماؤهم ، ولو في بابِ الوفيات !

والفائدة الثانية لصاحب القصة ، أنه يطّلع على نقد متين لقصته ،
يبصره بمواطن ضعفه ، ويهديه سبيل التجويد والإتقان .

وأما فائدة القراء عامة فهي اشتراكهم في تعرّف مواطن الضعف
في التأليف القصصي ، واستجلاء نماذج من السقطات التي تورّطت
فيها أقلامُ القصاص . ولا غنيّة لأديب ، ولا راغب في معالجة
الكتابة القصصية ، عن هذه الدروس التي تحفل بضروب من الموازنة
والهداية والتبصير .

وإذن فهذه المجلة ، « مجلة القصص المرفوضة » ، بدعة حسنة
نحمدُها للعقلية الأمريكية الفتيّة ، ونرجو أن يكون لنا فيها
عظة ومُعْتَبَر . . .

فأنا أهيبُ رجال الصّحافة أن تكون لهم في هذه البدعة الحسنة ،
أسوة حسنة . فليتقدّم منهم متقدّم ، وليتوكّل على الله في إنشاء
صحيفة يُسمّيها :

« صحيفة الخائبين » !

ولست أرى أن تكون مقصورةً على القصص وحده ، ولا على
فنون البيان خاصّة ، وإنما أقترح أن يتسع مجالها لشتى الأغراض في حياتنا
الاجتماعية ، حتى لا يخبني ثمرتها فريق دون فريق . فإنها متى عمّت
أغراضها عمّ الانتفاع بها بين الناس .

فالتكن صحيفة الخائبين جميعاً ، ولتشمل كل فرع من فروع الحياة . . .

ما أكثر من خابوا ، أو من يتوهمون أنهم خابوا ، فيفرون من الميدان متشائمين ينطوون على هزيمة ويأس . وخير لهؤلاء جميعاً أن يجدوا في هذه الصحيفة مُتَنَفِّسًا ، فيعرضوا قصص إخفاقهم صراحة لا يدارون ولا يكابرون . على أن يكون من وراء كل قصة تعقيب علمي يشرح أسباب الإخفاق ، ويهدي طريق النجاح . . .

لماذا ندع الخائب صريع خيئته ، لا يجد من يُعينه على النهوض لإستئناف السعى ومواصلة الكفاح ؟

إن الخائب في الحياة عضو أشل ، بل هو في أغلب أحواله عنصر هدام . فالإخفاق يغرُسُ في نفسه الحقد ، وما الحقد إلا توأم الشر ، وزناد الكيد . وما من خائب إلا يُبغِضُ من يراه ناجحاً دونه ، فيعمل على النيل منه ، ما واثته الحيلة ، وأسعفته الوسيلة .

كيف لا نبذل الجهد إذن حتى نجعل من هذا الخائب ناجحاً جديداً ، يؤازر فيما يعود على المجتمع بالخير والنفع ؟

وإذا كنا نهيّبُ بأرباب الصحف أن ينشئوا هذه الصحيفة الجليلة ، فإنهم لا يبلغون مأربهم من إنشائها إلا إن رحب جمع الخائبين ببذل العون في صراحة وجرأة وإقدام . . . فعلى أولئك السادة ، أعلام الخيبة ، وأبطال الإخفاق ، يقع العبء الأكبر في هذه الصحيفة . وبفضل معوتهم الصادقة يتوافر لها التوفيق في تحقيق غايتها المثلى .

وإن صحيفة هذا شأنها هي صحيفة تخدم المجتمع كله . تخدم الناجح المتألق فيحرص على أسباب نجاحه ، ويتجنب موارد الإخفاق . وتخدم الخائب الأصيل المزمن فيعالج الداء ، ويتلمس السبيل إلى الشفاء . وتخدم الخائب الناشئ فيتنكب عن الهوة التي زلت فيها قدمه ، ويتلافى ما كان من أمره ، ويتخذ له في الحياة مسلكاً قوياً .

أما رياسة التحرير في هذه المجلة الفريدة ، فإني أقترح أن تسند إلى خائب مكين في مضمار الحياة ، بارع الإخفاق في مختلف الآفاق ، حتى يكون بمهمته الجديدة واسع الخبرة ، سريع الفطنة ، فيرى فيه الخائبون جميعاً مرجعاً وثيقاً لأصول الخيبة وفروعها !

فمن ذا الذي يأنس في نفسه الشجاعة والصراحة والكفاية لهذا المهم ، فيرشح نفسه لرياسة تحرير تلك الصحيفة المنشودة ، حتى يثبت بحق أنه الخائب الأول ، أو الزعيم الأكبر لجمع الخائبين ؟ !

”بِلاص“ الجَمال

استقرّ المقام بصديقي «عزّوز» في الرّيف . ولم ينسَ أن يواتيني في الفينة بعد الفينة برسائلٍ طريفة تصفُ حياته هنالك ، وتجلو ما يدور بخاطره . ولطالما جنّح فيما يكتب إلى الإغراق والشذوذ عن المألوف . وحسبي أن أشيرَ إلى رسالته الأخيرة التي ملأها بتعليقاته ، أو بالأحرى « بتعليقاته » في شأنٍ من شئون الحياة الريفية . وإني إذ أبيع لنفسي نشرَ رسالته تلك ، فإنما يشجّعني على ذلك أن صديقي مُضرب عن مطالعة الصحف ، وقراءة الكتب ، منصرفاً إلى حياة الفأس والمِجراث . وأكبر يقيني أن إذاعتى لفكرته ستظلُّ سرّاً مكتوماً عنه . وفي ذلك ما يُخْلِيني من التّبعة أو الملام .

يقول - بعد التحية - فيما يقول :

« استرعى نظري قوام صبايا الرّيف في مشيَّتهنّ المعتدلة ، وقد استقامت هاماتهنّ ، فعجبتُ كيف لا يكون هذا القوام السّويّ لفتيات المُدن ؟ على حين أن كثيراً منهنّ يراولن التمريعات السّويدية التي هي

أشبهُ بالحركات « البهلوانية » ، مما تطالعنا به الصحف والمجلات في اليوم بعد اليوم ولست أدري أظالعنا به لكي تحبب الرياضة إلى المرأة ، أم هو اجتذاب لعين الرجل ، وإذ كالم دواعي الإغراء ؟

عجبتُ لذلك كلَّ العجب ، فالريفيات بحمد الله لا يعلمن قليلاً أو كثيراً من شأن تلك التمرينات ، ولو عرفنَ منها شيئاً لما آمننَ بأن لها أية فائدة !

وهل ننكر أن الكثرة الغالبة ممن يتبخترنَ من المدينت في الطرق ، لا يُحسِنُ السيرَ على أسلوبه الأصيل ، وفنّه الجميل ؟

فأما الريفية فهي على غرارها تمتاز بمشية صحيحة . ولعل لسداجة الريف فضلاً في احتفاظ المرأة هنالك ببصيرتها النيرة التي تهديها إلى الظهور بالمظهر الملائم لها باعتبارها أنثى . وعلى العكس من ذلك يطمسُ التمدُّنُ بصيرة المرأة في المدينة ، فلا تعرف كيف تسير السير الفنى الذى يكفل لها رشاقة القوام .

وقد بذلتُ جهدي باحثاً منقّباً ، أستجلي سرَّ تلك الموهبة الريفية ، فانتهى بي البحث والتنقيب إلى كشف جديد لا يُستهانُ بأمره ، ولا يقلُّ شأنًا عن أىّ كشف وطنى آخر . ففى مُعتقدي أن هذا الكشف خليق أن يُعدَّ للبلاد جيلاً جديداً من النساء ، يفوق بمشيته وقوامه فن « هولبود »

وإذا كنتُ قد أجزتُ لنفسى أن أفضىَ به إليك فى رسالة خاصة ، فإنى ليعزُّ علىَّ أن أذيعه بين الناس قبل تسجيله ،

والإحتفاظِ لنفسي بحقوقه كاملةً غيرَ منقوصة .
يتمثل هذا الكشف في كلمة واحدة ، هي : « البَلَّاص » . . .
أو بتعبير الخالدين في المجمع اللغويّ : « الجِرَّة » !
أَخْشَى أَنْ تُسْرِعَ إِلَى ثَغْرِكَ ابْتِسَامَةُ السَّخْرِيَّةِ حِينَ تَصِلُ إِلَى هَذِهِ
الْفِقْرَةِ مِنْ رِسَالَتِي ... فبِاللَّهِ عَلَيْكَ يَا سَيِّدِي أَمْسِكْ عَلَيْكَ سَخْرِيَّتَكَ ،
وَادْخِرْ ابْتِسَامَتَكَ لغيرِ هذا الموقفِ ، واصْبِرْ عَلَيَّ حَتَّى أُتَمَّ لَكَ حَدِيثِي .
أنا مؤمن بأن الريفية لم تكتسب قوامها المشيق ، ومشيتها الرياضية ،
إلا بفضل « البَلَّاص » . . .

هو في تكوينه الخاصّ ، وطريقة حمله على جانب الرأس ، ابتكار
مصريّ خالص ، لم يسبق إليه أحد ، ولم ينافس فيه أحد . . . وإنه ليبدل
على عبقرية أهل الريف ، وتجلّى أذهانهم فيما يعود عليهم بالبركة والخير .
أُنْظِرْ إِلَى « البَلَّاص » في مكانه من رأسِ حاملته ، تجذّه كأنما هو
صَنْجَة مِيزَان ، عليها يتوقف حُسْنُ الإِتْرَان . . . فالمرأة حين تَحْمِلُ
« بَلَّاصَهَا » على هذا النحو إنما تجعل أعضائها تستجيب لمقتضيات
التوازن في الحركة والوقوف . ومن ثمّ تَكْتَفِي العَضَلَات ، ويتأثر
الجسم كلّهُ ، بما فيه من شَحْمٍ وَلَحْمٍ ، وَفُقَ هذه المقتضيات .
أتراك تسترّيبُ بما أقول ؟

عليك بأيّ طالب ميكانيكي يشرح لك في لحظات نظريات الأوزان
والأثقال ، ونظام القوة والمقاومة ، وأنواع الروافع ، وظواهر الميزان
الرثوماني . فلا تلبث أن تؤمن معي بما أنا مُفَضِّلٌ بِهِ إِلَيْكَ .

« البَلَّاص » على الرأس : « مركز استراتيجي » عظيم الشأن ، في دولة الرِّشَاقَة . . . فهو إذا اعتلى عرشه الرفيع ، واستقرَّ في وضعه المكين ، أَلْفَيْتَ الجسدَ كله قد اتخذ الأُهْبَةَ لِلِاسْتِجَابَةِ ، وشاعت فيه اليقظة للصيانة والحراسة : القامةُ مستوية ، والهامةُ مرتفعة ، والصدرُ ناهد ، والعضلُ مستوفز . فأما ما قد يكون من فواصلِ الشَّجْمِ فإنه يَتَسَرَّبُ ويتَسَلَّلُ ، ولا يلبث أن يتزائل .

وإنك لترى حاملة « البَلَّاص » وقد اتخذت في سيرها مظهر التخطُّر والتهاذي ، فهي متتدة الخطو في غير تخلُّع ولا تراقص ، باديةُ المفاتن في حِشمة وبراعة من الابتدال . . .

أرأيتَ إلى « البَلَّاص » كيف هو بالغ الأثر في حياة صبايا الريف ، وإيفائهنَّ حظًّا من الرشاقة غير قليل ؟

نصيحتي إلى كل من تَشُدُّ الرشاقة والمشية الجميلة أن تقتنى في منزلها « بَلَّاصًا » تمارس به تلك الرياضة الجديدة ، فتحمله على رأسها على ذلك الوضع الفني المبتكر .

ولعلِّي أوفَّق قريبًا إلى أن يكون لي الفضلُ في وضع تمرينات مرسومة ، تبصِّرُ نساءكم المدنيات بفن المشية ، رهنَّ مشيئة « البَلَّاص » !
حَذَارِ أن تظنني أهزل فيما خُضتُ فيه من حديث ، فأنا أقدر ما أقول بحقِّ قدره ، وأؤمن به أعمق إيمان . وما سَوَّغْتُ لنفسي أن أجاهرك به إلا بعد روية وأناة ، وبعد أن وطَّنتُ العزمَ على المُتَأَفِّهِ بِهَذَا الإِكتشاف ، والعمل على بثِّ تلك الدعوة بشتى وسائل الإعلان .

وإني ليد عبئى أمل فى أن يبلغ صوتى أقصى أنحاء المعمور ، وبخاصة
البلاد الأمريكية ، حيث يقيم الأمر يكون أعظم الوزن لأساليب التجميل .
ولعلى موفق فيما بعد إلى إنشاء مصنع لصَّب « البلايص » المصرية
الأصيلة التى هى من طينة النيل ومن نار الوادى . فأغزو بها أسواق
الأمم ، وأكسب للبلاد غنماً تجارياً ليس بالهين اليسير ، ونخاراً وطنياً
ليس وراءه نخار»

هذه هى فكرة صديقى « عزوز » كما سجلها فى رسالته إلى .
وإنى أرى أن الأمر أخطر من أن يُعبرَ به عبور الإهمال .
ولعل من الخير أن تتألف لجنة قومية خطيرة تدرُس تلك الفكرة ،
توطئة لتأسيس « شركة مساهمة لصنع الجرار المصرية »
وبذلك تتطور « بلايص العسل » فتصبح « بلايص الجمال » !

فِي صَوْمَعَةِ الذِّكْرِيَّاتِ

أَعْلَى مَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ : ذِكْرِيَّاتُهُ !
إنها ذخيرته التي يُجَلِّدُ إليها في حياته الوجدانية .
بها يطمئنُ بالله ، وفي مجالها يَمْرَحُ خياله ...
فهى لنفسه أنس ، وهى لِرُوحِهِ مَتَاع .
من لا ذِكْرِيَّاتٍ له في ماضيه ، كان في حاضره تائهَ الفكر ،
شريدَ الوجدان !

هذه الذكريات مرآة الماضي ، بل زُبْدَةٌ مافية من كائنات وأحداث .
ومن طبيعة الماضي أن يجلو لك صفحته ناصعة ترمى فيها ما هو جميل
محبب ، ولو كان في حينه غير محبب ولا جميل !
هذا الماضي يَحْرِصُ دائماً على أن يُرِيكَ ما سَلَفَ من شأنك طيباً
رائعاً ، وإن كنت قد لقيت من خطوبه ما لقيت ، وكابدت من شره
جساماً من الأهوال .

لا عجبَ في أن يندو الماضي جميلاً ، فهو ذاهب لا أوبة له ولا مرَدَّ ،
ولا اتصال له بالزمن السائر من بعد . فنحن نتمثلُ غيبته ، ونأمنُ جانبه ،
ولذلك نستشعرُ له عاطفةً من الإعزاز والتكريم ، ونجدُّ له في أعماق
نفوسنا نوازعَ الحنين !

إننا في حاضرنا نتمحو ما جناه الماضي علينا ، أو قل إننا نغفر لهذا
الماضي سيئاته التي أسلفها إلينا ، فللزم من نار تصهر الأحقاد ، فتصفو
النفوس ، ولا تلبث أن تجنح إلى صفح وغفران .
بيد أن المرء لا يمنح الماضي هذه الهبة الكريمة من المسألة ،
إلا إن استيقن أن ذلك الماضي لا سبيل له إلى الرجوع . فلو توقع
إيابه لما تعلق به ، ولما صبت نفسه إليه ، ولما غفر له ما قدمت يده
من آثام . . .

إذا عاد الماضي عادت معه سيئاته ، تنفض عنها أكتافها ، وتعلو
بها ماتها ، وتكشف عن أنيابها المسنونة .. وهيهات أن يقع ذلك منا
موقع الرضا والترحاب !
ولكننا نؤمن بأن ذلك الماضي عهد مضى وانقضى ، وأمس أدبر
وتولى . فلا ضمير علينا في أن نذكره بالخير ، وأن نوليّه جانب الإشفاق .
ولعلنا نحس ميلا دفيناً إلى أن نعزو المحامد إليه ، ونلتمس المعاذير
له ، ونفتن في تسويغ ما ساءنا من تصاريفه ، وتهوين ما نابنا من
جرائره .

ما دام الماضي قد انقطع عنا ، فهو حقيق منا بأن نسبل على ذنوبه
أستار المغفرة !

وما دام الماضي غير عائد إلينا ، فهو خليق منا بأن نطوي له نفوسنا
على تعلق وحنين !

وإن التذكارات المادية لهي أقوى أركان الماضي وأقوم دعائمه . فهي

تشير الذكريات من مراقدها ، وهي تجسّمها وتبعثُ الحياةَ فيها على نحو
شائق مُستعذب .

ولقد عرف الناس لهذه التذّكّرات أثرها البالغ ، فكلُّ امرئٍ
منا يُقبل عليها قلّت أو كثرت ، وَيَعْتَرِزُ بِهَا غَلَتُ أَوْ رَخِصَتْ ، ويستكثر
منها ما وَسِعَهُ أَنْ يَسْتَكْتِرَ . . .

، وليست تُقَوِّمُ هذه التذّكّرات بما تُقَوِّمُ به الأشياء في سوق
الحياة . فإن تقويمها إنما يكون بما تشير من ذكري ، وما توجّحى به من
حال . فقد يكون التذّكار صورةً على أيّ نحو ، وقد يكون طُرْفَةً
في أيّ مظهر ، وقد يكون قُصاصةً من ورق ، أو بقيةً من قلم ، أو مادون
ذلك من عامة الأدوات والأشياء .

ورُبَّ تَذْكارٍ هو أهون ما يملك المرء من طُرْفٍ وتُحَفٍ ، كان هو
الفائز بالنصيب الأوفر من الإعزاز . بل لقد يبلغ عند صاحبه مبلغ
التقديس . فلو بذلت له أغلى ما في الدنيا من النفائس بدلاً منه ، لما
نزل عنه ، ولما رَضِيَ به بديلاً .

وأنا معترف بأني أحد أولئك الذين يخصّون الماضي وذكرياته بالخط
العظيم من التقدير والاهتمام ، وأني لا آلو جُهْدًا في الاحتفاظ لنفسى
بما يبعث هذا الماضي ، ويشير ما فيه من ذكريات .

في صومعتى التى أخلو فيها إلى كتيبى وأقلامى وأوراقى سُكول من
الآثار والتذّكّرات ، لسكّلٍ منها فى قلبى مكانته . والكثير منها جمعتُ
شتاتَه من مختلف الأصقاع التى كنتُ أجوزُ بها لمحضِ الزيارة أو للإستشفاء .

تلك الآثار والتذكارات تمثل أطواراً متعددة من حياتي الخاصة . . .
وإني لتتفع نظراتي عليها في حُجْرَةِ مَكْتَبِي الضَّيِّقَةِ ، فيخيلُ إليَّ أنها
تُخزِلُ العهود ، وتختصر الأزمان ، وتُدْأِنِي بين الأصقاع ؛ وأنها تريني ذلك
كله مضغوطاً مُدْمَجاً ، يبعثُ الماضي أمام عيني حياً في أية ساعة أريد .
ما أقربها شَبَهاً بتلك البلُورَةِ التي تستطيع أن تَلُمَّ ما تشَعَّتْ من
شعاع الشمس ، فَتَرُكُزُهُ في مكان محدود ، هو مُلْتَقَى النور .
تحيط بي هذه الآثار والتذكارات ، فكأنني أستعيد رحلاتي الغابرة
في عالم الماضي قَرِيبِهِ وَبَعِيدِهِ ، وأجدني أُسِيحُ فيه على نحو جديد . لأنني
أَتصَوِّرُهُ بعين اليوم الراهن ، وأنتقل إليه على أجنحة من خيال الحاضر !
وإن هذه الرِّحَلَاتِ التي أقوم بها وأنا ساكن في صومعتي ، لهي أطيب
رحلاتي وأوفرها دَعَةً وَطَمَأْنِينَةً ، فَقَدِ بَرَّئْتُ مِنَ التَّكَالِيفِ وَسَلِمْتُ مِنَ المَشَاقِّ .
لا حَقَائِبَ مُتَاعٍ تُعَبِّأُ ، ولا جَوَازَاتِ سَفَرٍ تُهَيِّئُ ، ولا جَمَارِكَ
أخوضُ نَمْرَاتِهَا على كُرْهِ ، ولا مَرَكِبَاتٍ أَتَنْقِلُ بِهَا غَيْرَ آمِنٍ !
لقد أَلِفْتُ هذه الرحلات الوادعة ، وطابت بها نفسي . فأنا أُوْثِرُهَا
كلما خَلَوْتُ إلى مَكْتَبِي ، لأَطَالِعَ ، أو لِأَجْرِي القلم . . .
وأشعر دائماً بأنني أُجَدِّدُ بهذه الرحلات حياتي الراحبة ، وأُذْهِبُ
بها ما يعتريني من سَأَمٍ ، وأبْثُ بين جوانحي رُوحاً من الحُرْكَةِ وَالطَّوَّافِ .
بارك الله في تلك الآثار والتذكارات :
سَجِينَةٌ ، ولكنها تُشِيرُ الانطلاق !
مُقِيمَةٌ ، ولكنها أبدأ على سفر !

ثَلَاثَةٌ تَمَازِيلُ

من عجيب ما يشعر به الإنسان من شأنه ، أنه قد تَجَمَّعَهُ بنوع من
الجمادات جامعة من صفة ، أو مشاركة في عمل ، فإذا الإنسان يكاد يُحسُّ
في هذا الجماد خَفَقَةَ الحياة ، ويأنسُ فيه صِبْغَتَهَا الرَّفَافَةَ ، وإذا هو على مَدِّ
الأيام يجد لهذا الجماد في نفسه من وشائج الألفة والود ما يجد للكانن الحى .
إنك تُعايشُ ذلك الجماد الذى تعدُّه فاقداً للحركة والحس ، فلا تَلْبَثُ
على غير تكلفٍ منك أن تستجلى فيه شيئاً وشمائل تختصُّ به . شأنه في
ذلك شأن من تُعايشُ من الأحياء .

هذا الجماد شائق ، خفيفٌ ظلّه . وذاك ثقيل تنقبضُ منه نفسُك ،
ولا تطيقُ له مَرَأى . . .

هذا يبدو كأنما هو ثرثار مملول . وذاك يرموعك دائماً بصمت
مهيب ، ووقارٍ كريم . . .

هذا تراه خبيثاً خداعاً ، كأنما يعكُر بك ، ويطوى أحناءه على
ضعيفة وإيذاء . وذاك يلاقيك صَفِيحاً نقيّاً ، كأنه صديق خالصُ الودِّ مِسْمَاح .
لا يُعييك أن تجد بين عامة الناس من يتوقّد إحساسه نحو الجماد ،
فيستشعر له ألواناً من العواطف متغايرة بين كراهة وإيثار . وإنك لتراه

يؤثر أو يحفو بيتاً يسكنه ، أو ثوباً يكتسيه ، أو مصباحاً يستضيء به ،
إلى غير ذلك مما يصطنعه في مرافق العيش من أدوات وأسباب .
وليس بدعاً أن يكون الفنانون على وجه عام ، أشدّ الناس توقُّدًا
إحساس بما للجماذ من كيان . فهم بما أوتوا من رهافة حسّ وذكاء شعور
لا يفوتهم أن يأنسوا ذيب الحياة فيما دقّ وجلّ من رحاب الكون
الفسّاح ، وأن يتأمّسوا أشتات الملامح والأشباه في كل ما تقع عليه
أنظارهم من خلق الله !

وربما كان « قلم الكاتب » أيسرَ مثلٍ نضربه . . . فيه يتبدّى
ذلك الضربُ من إحساس الفنان بالجماذ . فقد تتوثق الألفة بين الكاتب
وقلمه ، فلا يبغي بديلاً به ، وإن بلى في يده ، وإن تسنى له أن يتعوّضَ
منه قلماً أقدرَ على عونه .

إن الكاتب ليكاد يُقسِم غير حانت بأن هذا القلم هو الذي يُمدُّه
بأفكاره ، وكأنه جواده المدرب ، يجرى به طيماً لا يجمح ولا يتأبى .
وأما ذلك القلم الآخر فإنه وإن كان في حساب غيره أئمن وأمتن ، فهو
عنده فرس حرّون ، لا تؤتبه عوناً ، ولا تُغنيه شيئاً .

لا شططَ في القول بأننا نعيشُ بين هذه الجمادات كأننا نعيش
بين أحياء !

لك أن تعلل ذلك بما ينشأ بيننا وبين هذا الجماذ من الألفة . . .
ولغيرك أن يرُدّ العلة في ذلك إلى أن المرء يُفيضُ من خياله على الجماذ ،
فيضفي عليه الحياة ، أو مسحّة الحياة !

ولكن يلوح لى أن الأمر أبعدُ من هذا مَدَى . . .
ألا يكون هناك شيء آخر ، لا تُدرك له كُنْهًا على وجه التحقيق ، هو
الذى يَمْنَحُ الجِمالَ مَظْهَرَ الحِياة ، فيجعل له شخصيَّةً تميِّزه وتدعو إلى إثاره ؟
دَعْنِي من رأى الأقدمين فيما تواضعوا عليه من تعيين الفارق بين
الحَيِّ والجِمال . . .

بلى دعنى من ذلك التَّحْدِيدَ العتيق لمعنى الحِياة نَفْسِها .
لقد أرادونا دَهْرًا على أن نُؤمِنَ بأن كل شيء ينمو ويتحرَّك بذاته
ويتصرف فى شأنه فذلك هو الشئ الحَيِّ . . . وأن كل شيء فاقدِ النموِّ
النمو ، ساكنٍ بذاته ، لغير سببٍ عارض ، فقد حُرِمَ حَقِيقَةُ الحِياة
فى طَوْفِكَ الآنَ أن تقول بأن هذا الرأى قد أصبح غيرَ حَيِّ ١ .
لقد رجع العلم يستأنف النظرَ فيما كان مُقَرَّرًا من الفوارق بين
الأحياء والجِمالِ ، وهو اليوم ينادى بالشكِّ فيما يمكن أن يُسمَّى بالجِمالِ . . .
لقد اكتنَّه العلم فى هذا الجِمالِ الذى لا ينمو ولا يتحرَّك ، أسرارًا تُدْنيه من
مَرتَبَةِ الحِياة ، وتُذهِبُ عنه كثيرًا مما كان بينه وبين الأحياء من فروق .

أين « نقطةُ البَدْءِ » فى الحَيِّ ؟

أليست هذه النقطةُ تبدأ فى أغوارِ الجِمالِ ؟

أليس هناك إذن تشابك وتداخل بين الحَيِّ والجِمالِ ، وإن كان

واهنا ، أو حَسْبُنَاه غيرَ ملموس ؟

نَمَّةٌ صلة وثيقة بين الأحياء والجِمالِ ، وإن هذه الصلة لتجعلهما

فى صعيد واحد ، ينبسط عليهما حكم واحد . . .

ألست ترى العلم اليوم يزاول تفسير ذلك التماثل أو التقارب على أساس القوة الكهربائية في بناء المادة حية كانت أو جامدة ؟ .
ليس العلم قد انتهى إلى أن « الذرة » هي جوهر الموجودات ،
وما هذه « الذرة » إلا نظام كهربى ، مماثل في حركته نظام الأفلak ؟ .
هي قوة خفية يطلق عليها العلم في هذا العصر اسم القوة الكهربائية ،
ولا عليك من أن تقول بأنها هي التي يطلق عليها الصوفيون اسم
« الروح » .

هذه القوة الكهربائية ، أو هذه القبسة الروحية ، هي ذلك التيار
السارى فى بنية الوجود كله . هي ذلك الرباط الذى يصل بين أجزاء
الكون عالىه ودانىه . هي ذلك النسب الوثيق بين ما هو على ظهر
الأرض الميسوط وما هو فى بطنها الغائر ، لافرق بين أطباق السماء ،
وأعماق الماء !

تلك القوة وحدة لا انفصام لها ، وحدة يندمج فيها كل شيء ،
ويحيا بها كل شيء ، وليست هي إلا تلك النفحة العلوية التى هي قبسة
من نور الله !

عندى أن هذه القوة هي التى تنفخ من روجها فى هذه الجمادات ،
فتحيها شخصيات حية ، وتجعل بيننا وبينها مودة وألفة ، فإذا هي
أحياء نظارحها العواطف والمشاعر ، ونحس لها ما نحس للكائن الحى
من حب أو كراهية

شدد ما تتبادر إلى ذهنى هذه الخواطر ، كلما أشرفت على تلك التماثل

الثلاثة ، وهى تتبوأ مقاعدها من حجرة مكتبى ، فأناجيتها وتناجيني .
لقد كان لكل تمثال منها مناسبة جاءت به ، فهى تثير فى نفسى
خروباً من التذكار . ولكنها جميعاً أصبحت لى من صفوة الأصدقاء ،
أتمثلها إذا غبت عنها ، وأتفقدُها إذا حللت مكانها .
تماثيل ثلاثة . . .

لا أنكر أنها من الجماد ، ولكنى أراها من الجماد النابض الحى .
أولها : تمثال للشيطان ، سمهرى القد ، مسنون الوجه ، وضاح
القسمات ، كأنه فى احمراره جرة تتضرم . وقد أهدى إلى ربيته :
« بنت الشيطان » .

وثانيها : تمثال ذلك الفرعونى فى جلسته الصخرية الجاسية ، يُخيلُ
إليك أنه يستمرى جلسة الأبد ، لا نائمة ولا حراك . وكأنه حيالك
مستودع أسرار عميقة يخشى عليها أن تُذاع . . . ولقد منحنى فى صمته
ورزاقته منجته المتواضعة : « فرعون الصغير » .

أما ثالث التماثيل ، فهو شيخ أعجف ، تجرد إلا من ميزق مهلهة ،
وتجلت عليه سيما الضراعة . يمدُّ يد السؤال بلا ملال ، ولا يفتأ يستقبلنى
بكلمة : « إحسان لله » . . . فأوحت إلى كلمته الواحدة قصة كانت
عنوان كتاب .

وهاهى ذى ثلاثة التماثيل ، تأبى إلا أن تشترك جميعاً فى الإيحاء
إلى بهذه السطور !

وَسَائِلُ الْإِلْهَامِ

يَجْلِسُ الْكَاتِبُ إِلَى مَكْتَبِهِ ، وَالْقَلَمُ طَوَّعٌ يَمِينَهُ ، لَا يَدْرِي أحياناً
فِي أَيِّ مَوْضُوعٍ يَكْتُبُ ، فَإِنْ كَانَ الْمَوْضُوعُ نُصِبَ عَلَيْهِ ، فَرَبَّما عَزَّ
عَلَيْهِ أَنْ يَتَمَثَّلَ الْأَفْكَارَ وَالْخَوَاطِرَ الَّتِي تَدْعُمُ مَوْضُوعَهُ ، وَتُخْرِجُهُ فِي إِطَارِ
فَنِّيِّ شَائِقٍ .

وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ يَرَى نَفْسَهُ مَسْوقاً إِلَى الْإِمْلَاءِ ، يَمْضِي بِقَلَمِهِ أَوْ يَمْضِي
بِهِ الْقَلَمُ لَا يَلْوِي وَلَا يَتَعَثَّرُ . وَإِذَا بِأَفْكَارٍ وَخَوَاطِرٍ تَنْثَالٍ عَلَيْهِ وَتَنْهَالٍ ،
حَتَّى لَا يَسْتَطِيعَ لَهَا إِمْساكاً إِلَّا بِجُهْدٍ ، وَحَتَّى يَنْضَبَ قَلَمُهُ قَبْلَ أَنْ
يَغِيضَ مِنَ الْقَرِيحَةِ فَيَنْضِبُ الْهَتُونَ .

ذَلِكَ هُوَ مَا نَسَمِيهِ « الْإِلْهَامِ » ، وَذَلِكَ مَا حَيَّرَ الْإِنْسَانَ مِنْذُ
غَابِرِ الزَّمَانِ .

لَقَدْ طَالَتِ الْحَيْرَةُ فِي تَعْلِيلِ هَذَا الْإِلْهَامِ وَتَأْوِيلِهِ ، فَلَمْ يَجِدِ الْعَرَبُ
الْقُدَامِيُّ بُدْأً مِنَ السُّمُوءِ بِهِ فَوْقَ طَاقَةِ الْبَشَرِ ، وَرَاحُوا يَعْزُونَ الْإِلْهَامَ الشُّعْرَاءَ
إِلَى قُوَى خَفِيَّةٍ لَا تَنَالُهَا الْعَيُونَ ، فَتَخَيَّلُوا لِكُلِّ شَاعِرٍ تَابِعاً مِنَ الْجِنِّ ،
هُوَ شَيْطَانُهُ ، وَهُوَ مَنَّبَعُ الْإِلْهَامِ . . .

وَمَا كَانَ بُدْعاً أَنْ يَتَّجِهَ الْعَرَبُ هَذِهِ الْوَجْهَةَ فِي تَفْسِيرِ الْإِلْهَامِ ،

فقد حار الأقدمون من الإغريق حيرة العرب في البادية ، فأنخذوا للشعر
إلهة تمنح الشعراء روائع القصيد .

ولقد ظل الإنسان في هذه الحيرة من أمر الإلهام ، يذهب فيه
مذاهب شتى ، ولكنه على أية حال لا يحسبه إلا باعثاً خارجياً يهبط على
الأذهان مهبط الغيث ، فيحي من هامدها ما يُحيي الماء من الأرض
الموات .

بيد أن العصر الحديث ، عصر الكشف والتعرف ، عصر التحليل
والتعليل ، أرسل العلم رائداً يستجلى خبايا النفس ، ويفصح عن
سرّ الإلهام ...

وهذا العلم الجديد ينادى - في ضوء التحليل النفسى - بأن الإلهام
ليس إلقاء قوة العقل الباطن . ينكشف عنها الغطاء ، فتمضي في تدفق
وانطلاق .

ومما يسوقه العلم من شواهد ، أن كثرة من المفكرين الفنانين
في مختلف النواحي ، يعرض لهم من العقبات ما يتعاصى ، ولا يجدون
لمشكلاتهم من حلول ميسورة ، حتى إذا ملك النوم عيونهم ، تسنى لهم
أن يتخطوا العقبات ، ويتصيّدوا أيسر الحلول ، في عالم الأحلام ...

ولو تدبرت هذا التفسير العلمى للإلهام ، لألفيته قريباً من تحيّل
العرب لشياطين الشعراء . فالعرب كانوا يتمثلون الشاعر وقد حلّ الشيطان
في نفسه ، وتلبّس به ، ليُلهمه ويوحى إليه . وما هذا الشيطان إلا ذلك العقل
الباطن الذى يخزن الأفانين من النزعات والشهوات ومُعقبات الأحداث .

على أن العقل الباطن لا يكشف عن مكنونه ، ولا يُفضى بأسراره ،
إلا إذا عملَ الفنان على أن يُحْدِّدَ من سلطانِ عقله الواعي ، حتى تأنسَ
الأفكار الحبيسةُ بأضواء الحرية ، فتنتطقَ من قيودها الثقيلة ، على حين
غفلةٍ من ذلك الرقيب العتيد .

فإذا جلس الكاتب ليُمليَ على قلمه فيضَ قريحته ، فلا بدَّ له أن
يبتعثَ الإلهام من مرَّقدِهِ ، لا بدَّ له أن يبتغى الوسيلةَ التي تُنمِّجُ عقله
الواعي ، أو تكفكفُ من غلوائه ، حتى يظفرَ بما نلقبُهُ : الخلوَّة ،
أو الغيبوبة ، أو ساعة الصِّفاء !

ولقد تعودَ بعضُ الكتاب أن يتذرَّعوا ببعض الوسائل لاجتلاب
تلك الغيبوبة المنشودة ، فكانَ هذه الوسائل « جوازُ مرور » للعقل
الباطن . . .

ولشَدِّ ما تختلف وسائل الكتاب في بلوغ تلك الغاية ، ولعلَّ
أكثرها شيوعاً تلك الأشياء التي هي جديرة بأن يطلق عليها اسم
« المنومات » . فن موسيقى يستمع الفنان إليها ، إلى صورٍ خاصة يتملَّأها ،
إلى عطر مختار يتنَّسَّمه ، إلى شرابٍ أثيرٍ عنده يترشَّفه ، إلى غير ذلك
من الأشياء التي يطمئنُّ بها العقل الباطن إلى أن حارسه الساهر « العقل
الواعي » قد أخذتهُ إغفاءة !

فإن جاز لي أن أعدَّ نفسي بين من يستشيرون الإلهام من مكائنه ،
ويتودَّدون إليه ، ويتخذون بعضَ الوسائل في حمايته من أسباب القلق
والاضطراب ، فإنني أذكر أربعةَ أشياء ، ألفتُ أن أجعلها قريبةً مني

حين أتناولُ القلمَ ، لتكون « حَظُّ دَفَاعٍ » تُعِينُ الخواطرَ والأفكارَ على
أن تكونَ طليقةً في تحويجها ، آمنةً في سربها ، لا تُفزعُها الطوارئُ
والعادياتُ . هذه الأشياءُ ، هي :

قَدَحُ قَهْوَةٍ ، وَلِفَافَةُ تَبَعٍ ، وَسُبْحَةُ ، وَزَجَاجَةُ « نَشَادِرٍ » !

يقول لي قَدَحُ القهوة :

لَا تَحْسَبْ خَمُودَ ذَهْنِكَ ، فَإِنِّي رَهْنُ بَنَانِكَ ، أَمْدُكَ بِمَا يُعَوِّزُكَ .
حَسْبُكَ رَشْفَةٌ مِنْ رَحِيقِ تَطُوفُ بِكَ فِي آفَاقِ رِحَابِ .

وينتفضُّ من لِفَافَةِ التَّبَعِ بُخَانُهَا العَطِيرِ ، فيناجيني بقوله :
لَا عَلَيْكَ مِنْ اضْطِرَابِ أَعْصَابِكَ ، فَإِن جَذْبَةً وَاحِدَةً مِنِّي تَرُدُّ
إِلَيْكَ مَا عَزَبَ مِنْ طَمَأْنِينَتِكَ .

وتدنو من يدي حَبَّاتُ السُّبْحَةِ الطَّيِّبَةِ ، هَامِسَةً بقولها :

إِن فِي مُعَابَثَتِكَ لِي مَهَادِنَةٌ لِحَرْبِ أَفْكَارِكَ . فَلَئِنَّا نَسُّ إِلَى فِي الفِينَةِ
بَعْدَ الفِينَةِ ، أَدَاعِبُ أَنَامَلِكَ فِي غَيْرِ جَلْبَةٍ وَلَا صَنْجَبِ ، وَأَهْبِكَ لِحِظَّةِ
رَاحَةٍ وَجَمَامِ .

فَأَمَّا زَجَاجَةُ « النَشَادِرِ » فَهِيَ الدَّيْدَبَانُ اليَقْظَانُ ، لَا تَكَادُ تَشْعُرُ
بِمَا أَعَانِيهِ مِنْ جَهْدٍ وَإِرْهَاقٍ ، حَتَّى تَبَادِرَ إِلَى فِي رِفْقٍ وَدَعَةٍ ، فَتُنْعَشِنِي
بِطِيبِ أَنْفَاسِهَا الرِّقَاقِ ، وَلَا تَدْعَنِي حَتَّى أَصِيرَ إِلَى أَمْنٍ وَسَلَامِ .

أَوَّلُ لِقَاءِ

كان أولُ لقاءِ إِيَّاهَا في رِحَابِ الصَّحراءِ ، عن كَتَبِ مَنْ
« مِصرَ الجَدِيدَةِ » .

لم أكنُ قد تعرُفتُ بِهَا بعدُ ، وإن كنتُ قد شاهَدْتُهَا من قَبْلُ ،
وعلمتُ من أخبارِهَا كلَّ رَائِعِ طَرِيفٍ .
من ذا الذي يجهَلُهَا ؟

من ذا الذي لم يَقعْ بِصرُهُ عَلَيْهَا ؟

من ذا الذي لَا يُعْجَبُ بِهَا ، وَلَا يَشعرُ نَحْوَهَا بِفِيضِ مِنَ الرُّوعَةِ السُّحْرِ ؟
إنهَا مِلاءُ الأَعينِ ، مِلاءُ المِسامِعِ .

كلَّنا لَهَا عاشقٌ خَاطِبٌ وُدٌّ ، ولكنا على الرِّغمِ من ذلك نَحاذِرُ
ونتحرِّزُ ، لما نُحِسُّ لَهَا من تَهَيُّبٍ ورهبةٍ .

ليست هِيَ بِالطَّيِّعَةِ الذَّلُولِ ، فمِصاحِبَتُهَا مَحْفُوفَةٌ بِالْمَخَاطِرِ ،
ولكنها مَخاطرُ شائِقةٍ تُثيرُ في النَفْسِ الجَسَّارَةَ والإقْدَامَ ، وتُلهبُ بينَ
الجِوانِحِ نَزْعَةَ الغَلَبَةِ وَالظَّفَرِ .

وإنَّ صَدَاقَتَهَا لتَكشِفُ للمرءِ عِوالمَ جَدِيدَةً تَنزُخِرُ بِالوَأَنِّ
من الرِّوائِعِ .

وكان منى أن جرؤتُ فرغبتُ إلى بعضِ ذويها في أن يهَيِّءَ لى موعداً
أَحْظَى فيه منها بأول لقاء .

وكرت الأيام لا تُنبئني طلبتي ، حتى سلوتُ عنها ، أو تصنعت
أنى سلوت . . .

وأسفر صُبحُ يومٍ يحمل إلى بشرى اللقاء المنشود ، فانتظمتُ شعور
هو مزاجٌ من خشيةٍ واعتباط .

وتأهبتُ لهذا اللقاء ما وسعني التأهب .

وكان الموعدُ رائعاً في مكانه وزمانه :

ساحة الصحراء الرَّحبة ، قبيلَ مطلعِ الفجر . . .

يا له من لقاءٍ عاطفيٍّ خلَّاب !

أمضيتُ نهاري جَيَّاش الخاطر ، تلعب بي الهواجس كلَّ ملعب .

فَسَخِرْتُ من نفسي :

فِيمَ هذا كله ؟

حقاً إن صداقتي بها مغامرةٌ أية مغامرة ، ولكن يجب عليّ أن أُقبل

على هذه المغامرة في جسارةٍ وتشجيعٍ !

بلغتُ المكان في الموعد المضروب ، فألفيتها في الانتظار ، وما إن

أخذها بصرى حتى عرّتني رِعدةً تزايل أمامها عتادي من قوة العزيمة
ورباطة الجأش .

ومثلتُ على مقربةٍ منها أواجهها ، وبى من الحيرة والرهبة ما لم

أستطع له دفعا .

لقد كانت قبالي تتألق في الفضاء الطلق ، كأنها الكواكب
الوهَّاج في ظلمة الليل .

كانت في رداءها الفضيِّ تتوهَّج ، كأنما هي إلهة من آلهة
الأساطير .

وقفتُ أتوسَّمها خاشعا ، تتنازغني مشاعرُ الشغف والاستحياء .
لا أنا بقانع منها بتلك النظرة المجرَّدة ، ولا أنا بقادرٍ على أن أخطو
إليها أبشها الشوق والحنين .

وقفتُ أتأملها مليًّا أحاول أن أستشِفَّ من مرَّ آها ما تنطوي عليه
نفسها من أسرار ، وما تُكِنه من أقدار

كلما أنعمتُ النظر فيها أحسستُ قوةً تجتذني إليها ، قوةً مغنطيسيةً
تسحُّ من كيانها ، محيطَةٌ بي ، لا أستطيعُ منها الفكَّك .

ها هي ذى المغامرة قد بدأت واستبانت بوادِرُها .
خيلَ إلى أن ابتسامه وضاحه تتخايل على ثغرها .

أهي ابتسامه انتصار أم هي ابتسامه إشفاق أم هي ابتسامه إزراء ؟
وقع في روعي أني أسمع هممةً منها .

أشرعتُ تتكلم ؟

أرهفتُ السمعُ مُهتاجَ الفؤاد ، وتجلَّى لي أن نمةً صوتًا ما أقر به
شبهًا بوسوسة الزهر يتفتَّح للطلُّ .

كأنما سمعتها تقول :

حتى متى وقوفك ؟

واختلجتُ شفتاي أقول :

لستُ أدري !

- ألم ترغبُ في صداقتي ؟

- إني في هذه اللحظة أشدُّ رغبة !

- إذن تقدمْ وكن جسورا . ما فتىء الناس يُذيعُونَ عني ما ينفثُ

الرعبَ في القلوب ، وما زالوا يزعمون أني أرمي بهم في مهالك .

- ما أحلاها من مهالك !

- إني مُضطَحَبَتُكَ إلى مجهولٍ قصيٍّ ، قد لا تطيبُ به نفسا

- حسبي أنك رائدتني إليه . . . شدَّ ما أنا شيقٌ إلى اكتناهِ هذا

المجهولِ في صُحبتِكَ !

- أسرعْ إذن إلىَّ قبل أن يبددَ الفجرُ متعةَ هذا اللقاء ، وتُدِيعَ

أشعةَ الشمسِ برَّ تلكِ المناجاة !

وبسطتُ ذراعيها الوضَاءَ تَيْنَ لي ، فألفيتني مُقبلاً عليها ، مرتعياً

في حِضْنِهَا ، كما يُقبِلُ الفَرخُ على حِضْنِ أمه يلتمسُ الدَّفءَ والحنان !

فَطَوَّقَتْنِي بذراعيها الفضِيَّتَيْنِ في تَرْفُقٍ وحنوٍ ، وما هي إلا أن

أحسستُ بها تعلو بي عن أديمِ الأرض ، وإذا بها تعضى بي صُعداً تشقُّ

أجوازَ الفضاء ، وهي تطلق في السماء دَوِيَّ الظفرِ والانتصار .

ذلك كان أولَ لقاءِ بيني وبين صديقتي . . . « الطائِرة » في رحلتني

الأولى إلى العالم الجديد !

أَجَبُ الْعَاشِقِينَ إِلَى

سُئِلْتُ يَوْمًا :

مَنْ أَحَبُّ الْعَاشِقِينَ إِلَى ؟

وقد دعاني ذلك إلى أن أُجِيبَ الطَّرْفَ في ذلك الحشد الزاخر ممن هَتَفَ بأسمائهم التاريخ ، وسجّل روائع غرامهم بين صحائفه الخالدات . . . فهناك « روميو » الذي يمثل المأساة الدامية في الحب ، والذي يُعدُّ أروعَ مثلٍ للفداء .

وهنا « قيس » صاحبُ « ليلي » الذي يمثل العشق العذري ، أو الحبَّ المجنون .

وثمة « أنطونيو » ذلك الذي كان أحرصَ ما يكون على الاعتصار والإستمتاع ، ما وجدَ إلى ذلك السبيل .

وهل نَدَسَى « مُعمر بن أبي ربيعة » الذي يمثل الحبَّ الثرثار ، ينشدُ فيه طيفَ المرأةِ أيةً كانت ؟

وفي التاريخ قريبه وبعيده سُكول وأفانين من العُشاق والمحبِّين ، يختلفون في شخصياتهم ، ويتباينون في مهوى أفئدتهم .

فأيُّ هؤلاء أحقُّ بالإيثار ؟ وأيُّهم أولى بالإشادة والإغلاء ؟

من منهم أجدرُّ بأن يتسلَّم رايةَ البطولة في ميدان الآهات
والزَّفَرَاتِ ؟

جعلتُ أعرَضُ الأَسْمَاءِ ، وأتعرَّفُ الشَّخْصِيَّاتِ ، وأتسمَعُ المناجِيَّاتِ .
وبغتةً وقفتُ .

فقد تخايلَ لي شَبَّحُ جَبَّارِ القَامَةِ ، قَوِيُّ العِضْلِ ، وافيُّ الجُسمَانِ .
ولقد راح يتقدَّم مني متزنَ الخطَا ، عليه سِيَاءُ الترفُّعِ والعِزَّةِ ، تتراءى
منه جبهة عريضة تتدلَّى عليها خُصَلَاتُ شعْرٍ أُسْحَمَ غزير . . . فراغى
منه أنه عارى الجسد ، إلا من جلودٍ تَسْتُرُ بعضَ أوصاله !

لاح لي هذا الشَّبَّحُ الجبار الكريمُ العنصر ، وعلى وجهه ابتسامة ،
وجعل يبعث إلى نظراته ، وهو يعبثُ بلحيته المُشدَّبة ، كأنه يقول لي :
أين مكاني بين من تخيَّرت من صفوة العشاق ؟

لحقاً لست أدري كيف فاتني أن أذكره . . . وهو البطل الأوَّل ،
والزعيم المقدم ، لا دفاع ولا نزاع ؟

إنه فرُد فد ، يعدلُ بقصة غرامه ألوف المغرمين على تعاقب
لأحقاب !

إنهم حين يُوزنون به يبدون أقزاماً ضئيلاً ، هيئات أن يقوم لهم
حساب بجانب عملاق العماليق !

وكيف لا يكون ذلك وهو الرأس ، وهم الأذنان ؟
وكيف يقوم في ذلك خلاف وهو الجذع الركين ، وهم الأفتان

المهازِيل ؟

هو الرائد السَّبَّاق ...
هو واضع أُسِّ الحُبِّ لبني البشر ...
هو مَنْ شَرَعَ ذَلِكَ الشَّرْعَ ، وَسَنَّ ذَلِكَ الْقَانُونَ ...
هو مَنْ عَبَّدَ الطَّرِيقَ لِكُلِّ سَالِكٍ بَعْدَهُ ، مَتَأَثَّرٌ بِخُطَاةِ .
هو الذي تَلَاَقَتْ فِي قَلْبِهِ كُلُّ أَفَانِينَ الحُبِّ ، مِنْ عُذْرِيٍّ ، وَصُوفِيٍّ ،
وَجَسَدِيٍّ ...

هو الذي بذل في سبيل حُبِّهِ أَكْبَرَ فِدَاءٍ لَا يَمْلِكُ أَنْ يَبْذُلَهُ غَيْرُهُ ...
لَوْلَا حُبُّهُ هَذَا لَمَا كَانَ لِلْبَشَرِيَّةِ كَيْانٌ !
لقد أَحَبَّ فِي دُنْيَاهِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تَحْوِي إِلَّا قَلْبَيْنِ اثْنَيْنِ ،
نَخَلَقَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا المَحْدُودَةِ عَالَمًا رَحِيبًا الْأَكْنَافُ يَزْخَرُ بِالْوَفِّ
المُحِبِّينِ !

لِكَأَنَّهُ قَدْ أَرَادَ أَنْ يَجْعَلَ الحُبَّ حَقِيقَةً خَالِدَةً يَتَوَارَثُهَا خَالَفٌ عَنِ
سَالَفٍ ، فَالْتَقَى الغِرَّاسُ ، وَبَذَرَ الحَبَّ ، وَأَحْسَنَ الشَّقِيَا . وَظَلَّ يَتَعَهَّدُ
الزَّرْعَ حَتَّى نَمَّوْا وَكْتَمَلُ ، وَآتَى أَكْلَهُ ، وَمَا زَالَ يُؤْتِيهِ طَيِّبَ الثَّمَرَاتِ .
رَبْمَا كَانَ فِي ذَلِكَ عَلَى خَطَأٍ ، وَرَبْمَا كَانَ عَلَى صَوَابٍ .

مَهْمَا يَكُنْ مِنْ رَأْيٍ ، فَمَا كَانَ فِي وُسْعِهِ أَنْ يَعْدُوَ مَا فَعَلَ ...
وَهَلْ كَانَ فِي مُسْتَطَاعَةٍ أَنْ يَتَطَهَّرَ مِنْ شَوَائِبِ الخَطِيئَةِ ، وَهُوَ

ابنُ طِينٍ وَمَاءٍ ؟ !

مَا يَسُوغُ لِي الْآنَ ، وَقَدْ وَضَحَ لِي ذَلِكَ الْوَجْهُ الكَرِيمُ ، إِلَّا أَنْ
أَجْعَلَهُ هُوَ مَوْقِعَ الإِخْتِيَارِ .

ذلك الذي باع النعيم المُلَوَّى ، سَعِيًّا إلى اكتناه سرِّ الحياة الأزلية
على ظهر هذه الأرض .

ذلك الذي هو صاحبُ التجربة الأولى في الحبِّ ، وصاحب القِدْحِ
المُعَلَّى في الفِداء .

ذلك هو أبو البشر : « آدم » !

غَفَرَ اللهُ له ، وأعاننا على احتمالِ ما تَرَكَه لنا من ذلك التُّراثِ

المُخالِدِ الجسيم ...

أنت في نفسك دولة

قد تكون ممن يستهوى نفوسهم رفيع المنصب، ويختاب أنظارهم بريق الجاه، فتحلم أن تكون وزيراً... أن تكون لك تلك المكانة المرموقة التي ما زالت تظفر بأسمى الاعتبار.

ولكن يفوتك دست الوزارة، فلا تلبث أن تذهب نفسك حسرة على ما فاتك، وتعص بنان الندم على تقصيرك في التحيل والتوسل لبلوغ هذه المأربة.

وربما حابيت نفسك، وترفعت بها عن اللوم والتعنيف. فانبريت تصب على القدر جام غضبك، وتُنزل به جاحم ثورتك. ترى أنه قد مكر بك، وكاد لك، فحرمك أن تتبواً هذا المنصب الخطير، لتأمر وتنهي، وتُعز وتُدل، وتستمتع بأن تبرقش الأوراق بإمضائك الكريم، وتتلقى من أعوانك ووفود بابك ألوان التحايا والحفاوات، ومن حاشيتك وأحراسك ضروب التبجيل والإعظام. يزعمونك بذلك كله، كما انشئت اثناءة، أو أومات إيماءة!

فيا صاحبي :

لا عليك... ليس في الأمر ما يستوجب التحسر، فإني كاشف لك

الغطاء عن شئٍ غاب عنك ، أو سهوت عنه ، وأنتَ واجدٌ فيه ماتحلّم به ،
وتطمح إليه . وهو منك على مقربة ، بل إنه موصول بك أوثق صلة ،
فأهو إلا حقيقة واقعة تمارسها في حياتك ، وإن لم تكن منها على علم .
أنا زعيم لك بأنك مستمتعٌ بالمنصب الوزاري في أوسع نطاق .
فأنتَ لستَ صاحبَ وزارةٍ واحدة ، وإنما أنتَ تهيمنُ على وزاراتٍ شتى
ليستَ أهونَ شأنًا من تلك التي تراها قائمةً في نظام الحكم .
أما دار بخاطرك أنك أنتَ في نفسك دولة . . . دولة مستقلة
ذاتُ سيادة ؟

أما فكرتَ في نفسك : كيف أن الله أودعك من القوى الظاهرة
والباطنة ما يجعل منك حكومة قائمة ، لها كل خصائص الحكومات
في كبرى الدول ؟

أنتَ مملكة ! . . . وما رأسك إلا ديوان الحكم ، فيه تلتقي شتى
الوزارات . والفارقُ بينك وبين حكومات الأمم أن مجلس الوزراء فيها
غيرٌ وطيد الدعائم ، فإنه لتعصفُ به الريح بين عشية وضحاها ، طوعاً
لتقلبات السياسة ، وطوارئ الأحداث . على حين أن مجلس وزراءك
دائم وثيق : وُلد معك ، ونما في ظلك ، وسيلَازمك ما حييت !

تبصّر في أمرك قليلاً ، يتبين لك أني لا ألو ، ولا أغلو . . . وأنتَ
ذو مملكة عريضة الجنبات ، معقّدة المرافق . ليس في طوقك أن
تستكبره دقائقها إلا إن استعنتَ على ذلك بمجهرٍ يجلو من الأشياء
ما تنهى في الصغر . . . ولعل أكبر مجهرٍ يعياً بأن يُريك ما كمن من

الدقائق في أعماق مملكتك البعيدة الأغوار !
أنت في حقيقة نفسك كَوْنٌ عَجِيبٌ ، لم يُكشَفْ منه إلا أهْوَنُ
ما فيه . . . فأما ما وراء المعلوم فهو غابات وأحراج ، مجَاهِلٌ تحوم حولها
الظنون والأوهام حَيْرَى لا تَطْمِئِنُّ إلى يَقِينٍ . . . وإن هذه المجاهل
لتنطوي على كنوز عَذْرَاءٍ بعيدةٍ عن مَنَالِ العيون ، قُوَى هائلة لو أُتِيحَ
استغلالها يوماً لكان منها آياتٌ ومعجزاتٌ ! . . .
في رأسك العامر تتسامقُ أبنية عظيمة تزدهم بها الأركان ، وماهى
إلا دواوين الوزارات في دولتك الكريمة . . .
لقد تَمَيَّزَتْ في رأسك مَنَاطِقٌ ، لكل منها اختصاصٌ بجانبٍ من
مَرَافِقِ الحكم ، ولكلٍّ منها نفوذٌ وسلطانٌ على سائر الجسد .
ودونك بعض ما تُعانيه من العِبءِ الذي يضطلع به رأسك ، إذ
يَسْمُوسُ هذه الدولة ، ويهيمن على مصايرها الجسام . . .
أرأيت إلى نفسك ، وقد نَقَمْتَ على أحدٍ في بعض شأنك ، فثارت
ثأرتك ؟ . . . أأست في هذه اللحظة كأنك قد عَقَدْتَ «هيئة أركان
حربك» في وزارة دفاعك ، وَغَبَّاتَ جُنْدَكَ في أُمَّةٍ أَهْبَةٌ وَعَتَادٌ ، لتقوم
بتدبير أمرك في الهجوم والكفاح ؟ !
أرأيت إلى نفسك ، وقد تَحَرَّجَتْ بك الأمور ، ودنا الخطرُ من
مخالفِ مَرَافِقِ عيشك ؟ . . . أأست في هذه الحالة كأنك قد أعلنت
«الأحكام العرفية» في دولتك . فَسَنَنْتَ النظم ، وشرعت الخطط ، على
أساسٍ من الحرمان والتحوُّط ، إنتقاداً للموقف ، وارتقاباً لانفراج الأزمة ؟

ولعل الفرد كان أسبقَ من الأمم تفتُّنًا إلى إنشاء تلك الوزارة التي لها خطرُها البالغ ، ألا وهي وزارة « الدعاية » . . . فإن لهذه الوزارة حُظوةً في مملكتهك ، وإن لها في رأسك مكانةَ الصدر بين الوزارات . وأبرزُ عمل لتلك الوزارة الخطيرة ، هو الإشراف على صحيفتك الشخصية . وما صحيفتك هذه إلا تلك القطعة الطويلة الملساء التي تعمُر ما بين شدِّقَيْك ، ويطلقون عليها اسمَ : « اللسان » ! . . .

ولطالما شاع في مملكتهك الاضطراب ، واسترخى فيها حبيلُ الأمن ، وتعقدت فيها السياسة الداخلية والخارجية ، من جرائر ذلك « اللسان » الجموح الذي لا يهدأ له صحب ولا ضجيج . فلا يكون لمجلس وزرائك همٌّ إلا فرض الرقابة تلو الرقابة على ذلك الطاغية اللجوج ، وإصلاح ما أفسده بثرثته ولجاجته !

وَثُمَّ في دولتك وزارة شدت عن سائر وزاراتك ، فانتبذت منها مكانًا قصيًّا ، ولم ترضَ بالرأس مسكنًا ، ولا بالعقل جوارًا . فأثرت أن تتخذ الجوانح مثابة ومثوى ، فتربعت في مناطقها جميعًا . وأعنى بها وزارة « القلب » . وهي وزارة مُترفة مُرهفة ، حساسة أوف ، فيها تلتقى الأهواء الطليقة ، وتتوهج العواطفُ الشاعرة . وإنما لمسرح تترأى عليه الأخيلة والأحلام . . .

ولهذه الوزارة شبهة استقلالٍ يثير بينها وبين سائر الوزارات ضروبًا من المشكلات ، أساسها تنازعُ الاختصاص !
وَبَدِيهٌ أن تكون أشدُّ الوزارات خصومةً لها ، وأعنفها نزاعًا

معها ، هي وزارة ما ليّتك ، فإن وزارة القلب في ترَفِها وسَرَفِها لا تحرِصُ
على توازن ، ولا تُبقي على مُدَّخِر !

ولست تدري كيف تفرّدت وزارة القلب بذلك المكان القصي ،
وكيف غنمت منك الاستقلال والتحرُّر . وأكبرُ الظن أنها كانت
تأخذُ مكانها بين سائر الوزارات في رأسك العاصم ، ولكنها لم تطبُ
نفساً بتلك القيود والنظم ، وضائق ذرعاً بما يتخلّق حولها من عيون
وأرصاد ، فتسلّلت إلى هذه المنطقة الخفاقة تاتمسُ الطلاقة والأمان ! .
أفبعد هذا كله تمدُّ عينك إلى تلك المناصب الوزارية الموقوتة التي
هي رهنُ الأحوال والملايسات ؟ .

أليست نفسك أولى بك ؟

أوليست دولتك الشخصيةُ جديرةً أن تشغلك عن عُلْيَا المناصب ؟
أعمرك لو حبست جهودك في نطاق أمرك ، فأحكمت تدبير
مشكلاتك على اختلافِ مناحيها ، وتشعب مراميها ، لاستشعرت
نشوة السعادة الحقّة التي هي أئمنُ ما في الحياة

أعمرك لو بلغت من ذلك مآربك ، وألقيت على نفسك نظرة ،
فرأيت شيوع الرخاء والطمأنينة في خاصّة شأنك ، لهان في عينيك
ذلك البريقُ الخلابُ الذي يخطفُ أبصارَ الناس من جاهٍ وسلطان ! .

لِلْمَرْءِ أذُنَانِ

نحن في عصرٍ تَمُوجُ فيه الأفكارُ أيَّما مَوْجٍ ، وتتناوَحُ الخواطرُ
يَمْنَةً وَيَسْرَةً ، لا تكاد تَطْمِئُنُ فيه النفوسُ إلى مَذْهَبٍ من مذاهب
الحياة ، أو تستقرُّ على وَضْعٍ من أوضاعِ المجتمعِ . . . فالعقولُ تتصارَعُ ،
والمذاهبُ تتطاحنُ ، والآراءُ تتخالفُ . والناسُ في فورةٍ ذلك الصِّراعِ
الدائبِ قَلِقُونَ حَيَارَى . . .

لأعجبَ إذنُ أن يَتَمَيَّزَ عَصْرُنَا الحاضرُ بأنه عصرُ المناقشةِ والحِوَارِ ،
فيه تتعدَّدُ المؤتمراتُ ، وتَعْمُرُ المنابرُ بالخطباءِ ، وتكثرُ الجلساتُ تحتَ
قبةِ البرلمانِ ، وتتوالى اللجانُ في الوزاراتِ والهيئاتِ . . .

وهذا كله فوقَ ما تحفِلُ به المجالسُ والحلقاتُ في المشاربِ والأنديةِ
من جَلَّاجَةٍ في الحديثِ ، وتجادِبٍ لأطرافِ الجدالِ .

حتى إن هذه الظاهرةَ لتأخذُ طريقها إلى أخفى الزوايا في المنازلِ
والأسرِ ، فتبدلُ أَمْنَهَا قَلَقًا ، وسكينتها ثورةً واضطرابًا .

وقد كانَ من أثرِ ذلك في نفسى أن جعلتُ أفكُرُ في فلسفةِ التكلمِ
والإصغاءِ ، أو بتعبيرٍ آخرَ : فلسفةِ اللسانِ والأذنينِ !

وعلى الرغمِ مما أعملتُ من فكري ، فإن الفضلَ فيما انتهيتُ إليه

من رأيٍ يرجعُ إلى بطلنا الحمُولِ الصَّبُورِ المُفْتَرَى عليه ، صديقنا
« الحِمَارِ » . . . هذه الشخصية الفذّة المَجْجودِ جَميلها على بنى الإنسان !
ولعلك سائلي :

ما وجهُ العلاقة بين هذا الصديق وبين فلسفة اللسان والأذنين ؟
ليستُ العلاقة التي أراها وَهْمًا ولا كذبًا ، فاصبرْ صبراً جميلاً حتى
يأتيك الخبرُ اليقين .

تبارك اللهُ أحسنُ الخالقين !

لقد خلق الإنسان في أحسنِ تقويم . . .

خالقه فَقَدَره ، ولم يجعل تركيبه عَبَثًا ، وليس يُعَوِّزُنَا إلا أن نتبين
حِكْمَةَ ذلك الخلق ، وأن نهتدي إلى أسرارِ ذلك التركيب ، حتى نعرفَ
لكل شيء حَقّه ، ونتجه به وَجْهَتَه ، فلا نضلَّ في ذلك سواء السبيل .
أمامنا جِسمُ الإنسان ، رُكِّبَتْ فيه عينان ، ويدان ، وساقان . على
حينٍ أن فيه قلباً واحداً ، ولساناً واحداً ، ورأساً واحداً .
ولم يكن ذلك عَفْوَاً لغيرِ عِلَّةٍ . . .

أولُ ما يُلَوِّحُ لك من سرِّ هذا التقويم أنه آيةُ التناسقِ والإنسجامِ ،
أعني تدييرِ النَّسَبِ بين الأوصال ، طَوْعاً لِفَنِّ الْجَمَالِ .

ولكنَّ أعظمَ السرِّ في ذلك التقويم ، هو الفائدةُ التي يَجْنِيها المرءُ منه . . .
للمرءِ قَدَمَانِ ، ولو كانت له قَدَمٌ واحدة لما استطاع السيرَ إلا
تواثباً ، ولما توافرَ له من الكَرِّ والفرِّ ما يتوافرُ له بقدمين اثنتين !
وللمرءِ يَدَانِ ، وفي المثل : « يَدٌ واحدةٌ لا تُصَفِّقُ » . فكُلتا اليَدَيْنِ

عَوْنٌ لِلْآخِرَى عَلَى بُلُوغِ الْمَآرِبِ ، وَعَلَى التَّوَقُّفِ مِنَ الْمَكَارِهِ .

فَمَاذَا كَانَ الْإِنْسَانُ ذَا لِسَانٍ وَاحِدٍ ؟

بَدِيهَةٌ أَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ أَشْفَقَ عَلَى النَّاسِ مِنَ النَّاسِ ، حِينَ

اخْتَارَ لَهُمْ هَذَا التَّقْوِيمَ الْحَكِيمَ . فَلَوْ كَانَ الْمَرْءُ لِسَانًا لَجَرَى مِنَ الْمَصَائِبِ

مَا لَا يَدُورُ فِي حِسْبَانٍ ، فَإِنْ لِسَانًا وَاحِدًا جَرَّ عَلَى الْبَشَرِيَّةِ مَا تُعَانِي مِنْ

أُذْيَةٍ وَشِقَاءٍ ، فَكَيْفَ تَكُونُ الْحَالُ إِنْ أَعَانَهُ لِسَانٌ آخَرَ فِي رُكُوبِ تِلْكَ

الْمَصَائِبِ ، وَخَوْضِ تِلْكَ الْغَمَرَاتِ ؟ .

وَمَاذَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ أُذُنَانِ ؟ .

يَرَى أَهْلُ الرَّأْيِ أَنَّ الْمَرْءَ أَحْوَجُ إِلَى أَنْ يُصْنَعَ مِنْهُ إِلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ ،

وَإِنْ أُذُنَيْنِ اثْنَتَيْنِ هُمَا أَقْدَرُ عَلَى الْإِسْتِيعَابِ ، وَأَصْبَرُ عَلَى الْإِضْفَاءِ مِنْ

أُذُنٍ وَاحِدَةٍ .

وَلَكِنْ ازْدِيَادَ الْهَرَاءِ وَتَوَاصُلَ الثَّرَثَةِ فِي هَذِهِ الْحَقِيبَةِ مِنْ حَيَاةِ

الْبَشَرِيَّةِ لَيَدْعُونَنَا إِلَى أَنْ نُعِيدَ النَّظَرَ فِي فَائِدَةِ الْأُذُنَيْنِ ، وَأَنْ نُخْضِعَ

السَّمْعَ لَوْظِيفَةٍ أُخْرَى .

لَقَدْ اهْتَدَى صَدِيقُنَا « الْحِمَارُ » إِلَى ذَلِكَ مِنْذُ عَهْدِ عَهِيدٍ . إِذْ فَهِمَ

أَنَّ الْحَدِيثَ أَغْلِبَهُ لَعْنُهُ ، وَأَنَّ الْكَلَامَ قَلِيلُهُ خَيْرٌ وَكَثِيرُهُ لَأَخِيرَ فِيهِ ،

فَعَمِيَ بِتَطْوِيعِ أُذُنِيهِ لَوْظِيفَةٍ أَجَلَ مِنَ السَّمَاعِ وَأَجْدَى .

قَسَمَ « الْحِمَارُ » سَمْعَهُ قَسَمَيْنِ ، فَجَعَلَ لِاسْتِقْبَالِ الْحَدِيثِ أُذُنًا ،

وَلِلتَّخَلُّصِ مِنْهُ أُخْرَى .

الْأُذُنُ الْأُولَى لِلتَّرْوُدِ وَالْإِسْتِيعَابِ ، وَالْأُذُنُ الْآخِرَى كَالْمِصْفَاقِ ،

أو كصمام الأمن ، أو كالمِدْخَلَةِ لإطلاق ما لا حاجة به من البخار الحبيس .
فَطَنَّ الصديقُ إلى هذه الحقيقة منذُ القَدَمِ ، فَتَكَيَّفَتْ أُذُنُهُ
طَوْعًا للحركة الدائبة من الاستيعاب والتخلص ، ووفقًا لنظرية التطور
المقابلة بأن الضرورة تصنع العضو . . . ولذلك استطالت أذناه ، للمرآنة
الموصولة واليقظة الدائمة في الاستقبال والإرسال !

وإني أزعُم ما وسعني الزعم أن هذا الحيوان أسعدُ خلقِ الله باهتدائه
إلى استخدام أذنيه على هذا الوضع الحميد .
وليس أدلّ على سعاده من طمأنينة الرضا السابغة عليه ، ومن
تلك النظرة الفلسفية التي يديرُ بها عينيه في محجريه ، مُطِيفًا بمن حوله
في سخرية واستخفاف .

إن صديقنا ذا الأذنين الطويلتين لا يضيره أن يُصغى ويصغى ،
ما دامت إحدى أذنيه صمام أمن ، على أهبة الاستعداد للطرح والنّبذ .
فهو بمنجاة من احتباس الحديث ، وترسب اللغو . هيهات أن يضيق
صدره يوماً بما يبلغ سمعه من قولٍ غليظ . . .

وأمانة النصيح تقتضيني أن أوصي باقتباس هذه الحكمة الغالية من
صديقنا « الحمار » . . . فلو فعلنا لاستقامت لنا الحياة في كثير من
صورها ومظاهرها !

وأنا مؤقن بأن أكبر خلافات الأحزاب ، ومُشكلات الطوائف
والهيئات ، ستذوب ولا يبقى لها أثر إن جعلنا إحدى الأذنين لاستقبال
ما يقال ، والأخرى للنّبذ والإطراح .

والعالمُ اليومَ يَزْخَرُ بِأَمْوَاجٍ مِنَ الدَّعَايَاتِ الْمُهَوِّشَةِ تُسَلِّمُ الرُّعُوسَ إِلَى
دُورٍ ، وَتُوَدِّي بِالشُّعُوبِ إِلَى ثَوْرَةٍ وَهِيَّاجٍ . . . فَمَا أَحْرَأَنَا أَنْ نَتَخَلَّصَ
مِنْ هَذَا الأَثْرِ السَّيِّئِ ، بِاتِّخَاذِ ذَلِكَ الأَسْلُوبِ الحِمَارِيِّ الحَصِييفِ !
كَمَا اسْتَطَالَتْ الأُذُنُ كَانَ ذَلِكَ مَدْعَاةً إِلَى الرَّاحَةِ وَالطَّمَانِينَةِ
وهُدُوءِ البَالِ . . .

فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعِيشَ فِي بَيْتِكَ ، وَفِي مَدَارِ عَمَلِكَ ، وَفِي مَنْهَجِ
خُطَاكَ ، بَارئًا هَانئًا ، فَلَا تَجْعَلُ أذُنَيْكَ كِلْتَيْهِمَا جِهَازَ اسْتِقْبَالٍ فَحَسْبُ ،
وَلَكِنْ عَوِّدْ إِحْدَاهُمَا أَنْ تَكُونَ جِهَازَ إِرسَالٍ !
لَسْتُ أَقُولُ لَكَ كَمَا يَقُولُ الدُّعَاءُ المَمْلُوعُ :
أَطَالَ اللهُ عُمُرَكَ . . .
وَإِنَّمَا أَقُولُ لَكَ مُخْلِصًا :
أَطَالَ اللهُ أذُنَيْكَ !

أَعْدَاءُ ثَلَاثَةٍ

أَعْدَاءُ الْإِنْسَانِيَةِ كَثِيرٌ ، وَصَوَّلَتْهَا فِي مَمْلَكَةِ الشَّرِّ قَائِمَةٌ عَلَى قَدَمِ
وَسَاقٍ . وَإِنَّمَا لَتَعِيَتْ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا مَا وَسِعَهَا أَنْ تَعِيَتْ .
وَمِنْذُ نَجَمَتْ هَذِهِ الْأَعْدَاءُ قَامَ فِي وَجْهِهَا دُعَاةُ الْخَيْرِ ، وَأَخْلَافُ
الْفُضِيلَةِ ، يَحْدُونُ مِنْ عُدْوَانِهَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ، وَيَكْفُونَ أَذَاهَا عَنِ النَّاسِ .
وَمَا بَرِحَتْ أَسْمَاعُنَا تَهْرُجُهَا أَصْدَاءُ الْحِمْلَةِ عَلَى ثَلَاثَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَعْدَاءِ ،
أَوْغَلَتْ فِي الْبَغْيِ ، وَأَمَعَنْتْ فِي الشَّرِّ ، فَهَضَّهَا قَادَةُ الْأُمَّةِ يَشُنُونَ
عَلَيْهَا غَارَةً شَعْوَاءَ . . . تِلْكَ هِيَ : تَأَلَوْتُ الْفَقْرَ وَالْجَهْلَ وَالْمَرَضَ .
وَلَيْسَ يُنْكَرُ أَحَدٌ مَا لِهَذَا الثَّلَاوِثِ الْكَرِيهِ مِنْ جَسِيمِ الْخَطَرِ ،
فَالِيهِ مَرَدُّ مَا تُعَانِيهِ الْأُمَّةُ مِنْ آلامِ شِدَادٍ ، وَمَا يَعْتَاقُ خُطَايَاهَا إِلَى الْأَمَامِ
مِنْ عَقَبَاتٍ صِعَابٍ .

بَيِّنَ أَنْ هَذِهِ الْأَعْدَاءُ الثَّلَاثَةَ عَلَى جَسَامَةِ خَطَرِهَا تَبَرُّزُ فِي الْمَعْسُكِرِ
الْمَادِيِّ لِلْعِيَانِ ، وَتُعْنِي فِي مَحَارِبَتِهَا عُدَّةٌ حَازِمَةٌ حَاسِمَةٌ مِنْ وَسَائِلِ الْاِقْتِصَادِ .
فَمَا أَشْبَهَهَا بِالْقُرُوحِ الظَّاهِرَةِ : دَاوَاهَا مَكْشُوفٌ ، وَدَوَاوَاهَا مَعْرُوفٌ .
إِذَا أَنْتَ أَخَذْتَ فِيهَا بِأَسْبَابِ الْعِلَاجِ ، خَيْرًا بِهِ ، مُحْكَمًا لَهُ ، كَانَ لَكَ
أَنْ تَسْتَقْبَلَ طَلَائِعَ الشِّفَاءِ .

وَتَمَّةٌ فِي حَيَاتِنَا الْعَامَّةِ أَعْدَاءُ بَاطِنَةٍ تَكْمُنُ فِي دَخِيلَةِ النُّفُوسِ ، وَيَسْرِي
أَذَاهَا فِي الْمَجْتَمَعِ مَسْرَى الدَّمِ فِي الْعُرُوقِ . وَهَذِهِ الْأَعْدَاءُ الْمَعْنَوِيَّةُ هِيَ الَّتِي
يَتَعَذَّرُ التَّخَلُّصُ مِنْهَا إِلَّا بِجُهْدٍ وَرِيَاضَةٍ وَمَعَانَاةٍ .

وَمِمَّا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ الْمَعْنَوِيَّاتِ هِيَ الْأَسَاسُ فِي سَعَادَةِ الْإِنْسَانِ ،
فَكَلِمَا صَلَحَتْ الْمَعْنَوِيَّاتُ أَفْضَلَتْ مِنْ صَلَاحِهَا عَلَى الْمَادِّيَّاتِ .

لَيْسَتْ تِلْكَ الْمَعْنَوِيَّاتُ إِلَّا الرُّوحُ ، وَإِذَا قُوِيَتْ طَاقَاتُ الرُّوحِ لَمْ
تَقْوِ عَقِبَةَ عَلَى أَنْ يَبْتَقِيَ لَهَا سُلْطَانٌ .

مَتَى تَوَافَرَتْ لِلنَّفْسِ عَقِيدَةٌ وَإِيمَانٌ مَضَّتْ فِي طَرِيقِهَا تَشْقِيَّةٌ ، حَتَّى
تَرُوعَكَ مِنْ أَعْمَالِهَا بِالْمُعْجَزَاتِ .

أَفِي مُسْتَطَاعِ امْرِئٍ أَنْ يَسْعَى إِلَى مِصَاوِلَةِ أَعْدَاءِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْمَعْسُكِرِ
الْمَادِّيِّ ، دُونَ أَنْ يَكُونَ مَدْفُوعًا إِلَى ذَلِكَ بِعَامِلِ نَفْسِيٍّ قَوِيٍّ مُوَصُولٍ
بِحُبِّ الْخَيْرِ ؟

إِنَّ الْعَالَمَ يَدِينُ بِرِفَاهِيَّتِهِ ، وَبِشُمُولِ الْخَيْرَاتِ فِيهِ ، لِقُوَى نَفْسِيَّةِ
اتَّخَذَتْ مِنَ الْمَثَلِ الْعَلِيَا رَائِدَهَا فِي الطَّرِيقِ ، فَأَحْبَبَتْ الْخَيْرَ وَعَمِلَتْ عَلَيْهِ ،
وَبَدَلَتْ جُهْدَهَا لَهُ ، حَتَّى بَلَغَتْ مَا تَرِيدُ .

الْمَعْنَوِيَّاتُ إِذْنُ هِيَ نَوَاةُ الرِّقِّ الْمَادِّيِّ . فَإِذَا شَدْنَا أَنْ نُعْلِيَّ مِنْ
شَأْنِ الْمَادِّيَّاتِ فِي حَيَاتِنَا الْعَامَّةِ ، فَعَلِينَا أَوْلَى أَنْ نَجْنِدَ قُوَى النُّفُوسِ
لِلتَّخَلُّصِ مِنْ أَمْرَاضِ النُّفُوسِ .

وَيَلُوحُ لِي أَنَّ أَعْدَاءَ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْمَعْسُكِرِ النَّفْسِيِّ ، ثَلَاثَةٌ .
الْحَسَدُ ، وَالْبُغْضُ ، وَالْحَقْدُ .

وإن شئت قلت : إنه عدوٌ واحد ، يتشكل في ثلاثة أطوار من حياته . يبدأ في طور الطفولة حسداً ، ثم يجتاز طور الشباب بُغْضاً ، ثم يكونُ في كهولته حِقْداً .

يَمُدُّ المرءَ عينه إلى ما حوله ، فإذا هو حاسد . ولا يلبثُ أن يُسَلِّمَهُ الحَسَدَ إلى إِبْغَاضٍ من يَحْسُدُهُ . وما هي إلا أن يَحْقِدَ عليه ، فيطوى النفسَ على إيذاءٍ له ، وإيقاعٍ به .

ذلك العدو المثلث هو حجر الزاوية في مأساة البشرية ، وليس ميّدانه مقصوراً على الفردِ وَحْدَهُ ، ولكنه يتعدّاه إلى الجماعات على اختلافها ، بل إنه يتخطاها إلى الدُّول على تفاوتها ، وإلى الأجناس على ما بينها من تباين .

ولكى يناهضَ الإنسانُ هذا العدوَّ الصميم ، عليه أن يواجهه في معسكره الأوّل ، أعنى : نفسَ الفرد . فإذا انكشفت عن الفردِ عداوته ، لم ينبسط لها ظلٌّ في الجماعات والدُّول والأجناس .

ولا تحسبنّ النفسَ الواحدة من الضلالة بحيث يتيسر علاجها على كلِّ طالب ، فإن هذه النفس عالم زاجرٍ يحتاج إلى تنظيم وتديير وسياسة لا تقلُّ عن تنظيم الممالك وتديير الأمم وسياسة الدُّول .

متى اشتملت نفسٌ بهذه العداوة المثلثة ، عانت حالة من الضعف والمرض . وهذه الحالة لا تصيبُ النفسَ بدافع الحرمانِ وَحْدَهُ . . فكم من نفوسٍ حسدتُ فأبغضتُ فحققتُ لغيرِ مُسَوِّغٍ من حاجةٍ مُلجئة ، أو ضرورةٍ داعية !

مرجع هذه العلة النفسية إلى بذرة الأنانية ، تلك التي تجعل النفس في بوتقة من القلق والاضطراب يهيجها ما تراه حولها من خير ينصرف دونها إلى سائر الناس . فهذه النفس لا تسكن ولا تقر إلا إن وقفت بمرصد ، لتردد عن السبيل خطوات الساعين إلى الغايات .

كيف نكافح هذا العدو المثلث ؟

كيف نهون من بطشه ، إن عز علينا أن نستأصل شأفته ؟
كيف السبيل إلى أن نوفر للنفس حظها من الصحة والعافية ، فيجتمع لها من القوة والثقة ما تعتصم به من شر ذلك المرض الويل ؟
لا جدوى لمختلف العقاقير والأدواء في علاج أمراض النفوس ، فالسبيل إلى شفاؤها رهون بترويضها على إيثار الخير ، وحب الغير .
ليس في مقدورنا أن نروض أنفسنا على الخير الشامل دفعة واحدة ، فالنفس حرمون ، وإن النفس لأماراة بالسوء ، ولا بد لها من مدارجة وملاينة ، حتى تآبى الجمّاح ، وتخفض الجناح .

ليأخذ المرء نفسه بادي بدء بحب أقرب الناس إليه ، وفي ذلك الميدان يتسنى له أن يقنع النفس بالحد من الأنانية ، فيهب من إشارتهم في العيش فضل سعيه ، وموفور إخلاصه . ثم عليه أن يخطو بخيره درجة أخرى فيضم إلى أهله من يجدهم من حوله أعوانا وإخوانا . وإن يستعصى عليه بعد ذلك أن ينزل عن أنانيته - طوعا - لمن لاصلة بينه وبينهم إلا صلة الإنسان بالإنسان !

وبذلك التدرج في ترويض النفس على التخلص من الأثرة والأنانية

تتأصل تلك النزعة الإنسانية من الحب والخير . وفي هذا كسبٌ
للبشرية عظيم .

أذكر فيما أذكر قصة فتى فنّان الروح ، كان بالرّمحان ولوعاً ،
فأراد أن يستنبت وردةً مثاليّةً لا عهدَ بها لأحد ، فقضى أعواماً يزاوُلُ
تجاربه ليجمع خصائص الورود الزكّية في وردته المنشودة . وكانت
تصاحبه فتاة رَعْناء ، يطوى لها قلبه على حُبِّ فوّار ، فأغدق عليها عطفه ،
واحتمل رعوتها في مصابرة ومطاولة . وأعانته حبه لصاحبه على أن
يظلّ ساعياً لخيرها ، لا يبالي أنانيّة نفسه وحقّها عليه . وبينما كان الفتى
مسترسلاً في تجارب الورود ، كانت الفتاة تفكّر في حُسن معاملته لها ،
وصبره على أذاها ، فأخذت تحاسب نفسها على ما كان منها ، ورجعت
تتودّد إلى فتاها في دُمائة خُلُق ، ولين جانب . ويوماً جالس الفتى مغتماً
يتحسّر لإخفاقه في استنبات الورود المثاليّة ، فجاءته الفتاة مترفةً به تسأله :

فيم تفكّر ؟

فابتسم لها ابتسامة يأس ، فقالت له وهي تلاطفه :

ألا يكفيك أن أكون وردتك المثاليّة التي نجحت في خلقها
خلقاً جديداً ؟ !

فاذا أردنا أن تكون الحياة رَوْحاً ورِيحاًنا ، فلنحرص على أن
نستنبت في نفوسنا تلك الورود المثاليّة التي يَضُوعُ منها عطرُ المحبّة
والإخاء . . .

دَعْوَاتِنَفْس

لم تكد الحربُ العظمى تضعُ أوزارَها منذ ربع قرن ، حتى كان من آثارها أن طَغَتْ على العالمِ مَوَجاتٌ من التطور في الأوضاع الفكرية والنُظُم الاجتماعية ، فانتقلت الحضارةُ الإنسانيةُ من عهدٍ إلى عهدٍ جديد . . . وكذلك الشأنُ في هذه الحربِ الأخيرة ، فإننا نلمحُ من مُعقباتِها أن العالمَ يتهيأُ لوَثباتٍ بعيدة المدى ، فيها جُرأةٌ ورعونةٌ ، تزولُ بها دنيانا ، وتحلُّ محلَّها دنيا جديدةٌ ، بما يسودُها من نُظُم وأوضاع .

ولذلك يحيا الناسُ اليومَ حياةً تتسمُ بالحيرة ، ويشيعُ فيها القلق والإضطراب ، ويغمضُ فيها المستقبلُ القريبَ والبعيد ، وتكتنفُها ظلماتٌ من التخوُّف والتوجُّس والحذر . وإن هذه الحياةَ القليقةَ الفوارةَ بأنواعِ المشكلاتِ وضُرُوبِ العقَد لتدعوُ الناسَ إلى توقُّعِ اشتباكٍ وعراكٍ يتزلزلُ له أركانُ المعمور .

والحقُّ أننا نعيشُ في عصرٍ تتراكمُ فيه أثقالُ الهموم ، وتتخايلُ أشباحُ المخاوف من بَغتاتِ الأقدار . وليس هذا الترقُّبُ والرَّهَبُ مقصوراً على هيئاتِ السياسةِ ومجامعِ الدول ، وإنما هو وباءٌ تفشَّى ، فلم يدعُ طائفةً من الخلقِ ، ولا فرداً من عامَّةِ الناس . . .

ومما يزيد الأمر خطراً واستدعاءً للاهتمام أن تلك الحياة القلقة الحَيْرِي، ليست مقصورةً على الرجال دون النساء، وإنما هي تشمل الجنسين على السواء، فقد وجدت المرأة الشرقية نفسها في بحر متلاطم متخبط الأمواج، تبهر عينها الأضواء السواطع، وتضم أذنها الصيحات المدوية. فهي اليوم تُجَاه مُعضلات اجتماعية تُصيب الصميم من كيان حياتها النسوية، إذ تتنازعها رغبات التحرر المطلق والمساواة التامة بعيش الرجال. وقد كانت في سوانف العهود آمنة مطمئنة في خدرها تستمرئ الهدوء والسكينة في دنياها المحدودة بالأستار والأسوار. ولعل المرأة لم تساو الرجل في شيء قَدَرَ مساواتها له اليوم في الإضطلاع بنصيبها من القلق والحيرة وتوتر الأعصاب.

وإذن فالضرورة تقضي بأن ينظر قادة الفكر وأساتة المجتمع في علاج تلك الحال يخفف وطء هذه الهموم، ويسرّي عن القلوب تلك المخاوف، حتى لا تتبلور فتتقاب عقداً نفسية خطيرة؛ تُفُض بالمجتمع الإنساني رجاله ونسائه إلى أوخم العقبى.

ومما هو مسلم به أنه لا شيء كالتنفيس في علاج المشاعر المكبوتة والهموم الرازحة، فإن المرء إذا حز به أمر لم تكن له من وسيلة طبيعية إلا البكاء والانتحاب، أو الصراخ والهياج. وما المظاهرات سلمية أو عنيفة إلا نوع من التنفيس لمشاعر الجماهير، حين يضيّق صدرها بما تُحس به من استنكار للظلم، وثورة على الإضطهاد.

وقد يهتدي الناسُ إلى أساليبَ من الحركة والضجيج يتلمسون بها
مُتَنَفِّسًا مما يجدونه في صدورهم من حَرَجٍ وضيق . ومما وُفِّقَ إليه الإنسان
من تلك الأساليب ذلك الرقصُ المصريُّ الشائع - أعنى تلك المخاصرة
الشَّائِئِيَّةَ الراقصة - فهي وسيلة اجتماعية قُصِدَ بها إلى التنفيس والتفرُّج
من ضَغَطَاتِ المهوم والأحزان .

ولقد تطور هذا الأسلوب طَوْعًا لمقتضيات الزَّمن ، ففي أعقاب
الحرب الماضية، منذ عقْدَيْنِ من السنين ، شاع ضربٌ عنيفٌ من ذلك
الرقص يُؤدِّيهِ الراقصون على الإيقاع الموسيقيِّ المُسمَّى « الجاز » . . .
ونحن وإن كنا لا نَجِدُ فضلَ الرقصِ المصريِّ في التنفيس ، نرى
أنه ليس بالملائمِ كلِّ الملاءمة لطبيعتنا الشرقية ، لامن وجِهَةً جَوْنَا الحارَّ
وما له من آثار ، ولامن وجِهَةً الأخلاق والتقاليد . . .
فَحَقَّقْ عَلَيْنَا أَنْ نَفْتَشَّ عَنْ أُسْلُوبٍ آخَرَ أَوْفَقَ وَأَلْبِقَ يَبْلُغُ
بنا للمنشود .

وعندي أن وسائلَ التنفيس لا تُؤْتِي ثمرتها إلا إذا كان أساسها
إطلاقَ طاقاتٍ من القوة المكبوتة في ألقاف النفس ، فتنبثقُ أصواتًا
واهتزازاتٍ وحركات .

أف نجدُ وسيلةً مستمدَّةً من عاداتنا، موافقةً لطبيعتنا، أجملَ وأكرمَ
من « الزار » للمرأة ، « والدُّكْر » للرجل ؟ .
نظرة خاطفة إلى حلقة « الدُّكْر » ومجموع « الزار » تجلوا لنا أن ذلك

« الذِّكْر » ملائم لوقار الرجولة ، وأن هذا « الزار » يَفْسَح للمرأة أفقاً
لعاطفتها ، ومَسْرَحاً لخيالها ، تَمْرُحُ فيه ما وَسِعَهَا المِراح . . .

« الذِّكْر » و« الزار » في حقيقة أمرهما ضربان من الرقص الإيقاعي ،
يندمج الإنسان فيه ، فيتزحزح الغطاء عن العقل الباطن ، وتنطلق
المشاعر المكبوتة من سجنها العتي . ولا يلبث القلب أن يصفو رويداً
من شوائبه ، ويتنسم الرُّوحَ والريحان !

الرجل في حلقة « الذِّكْر » يتمايل يمنة ويسرة ، ويهتز في صعود
وهبوط ، تحدوه موسيقى شجية من الناي والمزمار ، وأنغام من شدو
عذب رفيع يسحر السمع ، فإذا الرُّوح يخفُّ بها الشوق والحنين إلى
آفاق صوفية عالية يشيع فيها الطهر والنقاء !

والمرأة في مجمع « الزار » وقد أخذتها ضجبات الدفوف وصيحات
الإنشاد ، تكسوها حلال زاهية زاهرة ، وتزينها حلي براقه طريفة -
تراها قد نسيت نفسها ، فانطلقت سابحة في أجواء بعيدة من الأخيلة
والتصورات ، يتحرر بها ما كان مكبوتاً من الرغاب ، وينتعش ما كان
مغلوباً على أمره من النوازع والأهواء !

وأنت لو مضيت تبحث : أي الناس أولى بأن يتفرجوا مما بهم
من الضوائق ، لما رأيت أجدر من رجال السياسة بأن يغشوا حلقات
« الذِّكْر » : هم يحيون حياة زاخرة بالخصومات والأضغان ، ويتنفسون
في جو يتطلب الحيلة والمساترة وشتى أساليب الكيد والدهان . وإن

هذا كله لمُضَيِّعٍ بهم إلى كبتٍ ثقيل ، وحملٍ على النفس غيرٍ قليل . فإذا
فزعوا إلى حلقات « الذِّكْر » تسنَّى لهم أن تدوبَ بين حناياهم رواسِبُ
الأحقاد ، وأن تملؤَ نفوسهم عن الدنيا والصغائر ، وأن تنظهِرَ ألسنتهم
من أدران المهاترة والمِرَاء . فلا يكاد ينتهي بهم حَفْلُ « الذِّكْر » حتى
يلفُوا أيديهم قد تقاربتْ بالمصافحة الخالصة ، وأذرعهم قد انبسطتْ
لعناق أخويِّ مُصَنِّقٍ . . .

لعمري إن « حفلةَ ذاكرة » لهي أعمَرُ بالخير وأجلبُ للود وأجمعُ
للقلوب من عَشَرَاتِ المؤتمرات ، تقام على خُدعةٍ ونفاق ، وتنفِضُ على
ضغينةٍ ودَغَلٍ !

ما أكثرَ حفلاتِ الشاي ومجامعِ الشراب « كوكبتيل بارتى » في
عصرنا الراهن ، تتخلَّقُ فيها أخلاط من طوائف المجتمع المختارة ، وتتراهى
فيها الوجوه عليها مَسْحَةُ البشروصبيغة الإيناس . فإن كنت ممن يسبِّرون
الأغوار ، ويستشفون ما وراء الأستار ، تبينت أن الجامعة التي تؤلِّفُ
بين أشخاصهم ، وتصل بين أحاديثهم ، إنما هي جامعةُ الرِّياء الإجتماعيِّ
الجليل ! . . .

أفليس من حقِّ المجتمعِ الظامئِ إلى محبَّةٍ وسلام ، أن يُطالبَ بإلغاء
هذه الحفلات الزائفة ، والمجامع الكاذبة ، وأن يُجِلَّ محلَّها حلقات
« الذِّكْر » الصافية الوادعة ، تُدار فيها على الذاكرين أكوابُ القِرْفَةِ
والزَّنجبيل ، فيشربونها على الألحان العذاب من طبل ومزمار . . . ؟
ويارُبَّ معضلةٍ دهياء في موقفٍ دوليٍّ أعيت كبراء السَّاسة ،

فلم يجدوا العقدة من حلّ . ولو أطلقوا لأنفسهم أعنتها في حفل « الذِّكْر »
لافتح لهم الرأى ، وبرقت لهم بوارق التوفيق من أيسر سبيل . فقد
هدت أبحاث علم النفس الحديث إلى أن العقل الواعى قد يكبل ويمياً
بالأمر ، فإذا أسلم المشكلة إلى العقل الباطن ، تجلّى له وجه التدبير ، فيما
يشبه غفوات الأحلام !

أما الأوانس والسيدات من الطبقات العليا والوسطى ، فما أحوجن
إلى التخفيف من تلك المراقص والمساهر التي يسودها التكاف والتظاهر ،
ويتفشى فيها التفاخر بأناقة مصنوعة مزورة . وما أحوجن إلى أن يصن
زهرة شباهن التي تذويها السهرات الموصولة بين رقص وشراب .
لقد آن لهن أن يعدن إلى مجامع « الزار » ينفضن فيها هموم البيت
وأثقال الحياة ومخاوف المستقبل . وإن المرأة في هذه المجامع المقصورة
على بنات جنسها ، لتجد الفرصة سانحة على أنعام الدفوف لتطلق
سجيتها ، وتبسط دخيلتها ، لا يعوق حريتها عائق ، ولا يصرفها عن
البوح بمكنونها شيء . . .

ويلوح لى أن مجامع « الذِّكْر » ومحافل « الزار » لا تكاد تفشو
بيننا ، وتتوّد تقاليدنا الجديدة ، على أنماط موائمة لحياتنا الحاضرة ،
حتى نراها قد تخطت التُّخوم ، وسرت عدواها إلى أمم الغرب ، التماساً
لما فيها من بركة ونفع ، فيعالجون بها ما يعانون من قضايا دولية ومشكلات

قومية وأمراض اجتماعية أَعْضَلَتْ واستعصتْ على العلاج ، وَعَزَّتْ منها
الشفاء . . .

لَتَسْمَعَنَّ الْمَجَبَّ الْعَاجِبَ مِنْ أَنْبَاءِ « الذِّكْر » و « الزار »
الشرقيين ، حين يُسَيِّانِ أمرَيكَيْنِ ، تنفَنِّ في تجديدهما العبقرية الأمريكية
المولعة بالتجديد والإطراف ! .

ولسوف يَرُوقُكُ وَيَطْرُبُكُ حَقًّا أَنْ تَطَالَعَكُ الصَّحْفَ بِنْيَا مِنْ
« ليك سكسس » يذيعُ لكَ أَنْ اكْفَهْرَارَ المَوْقِفِ العَالِمِيِّ ، وشيوعَ القَلَقِ
على مصير السلام ، قد حفز « الرئيس » على أن يقيم في « مجلس الأمن »
حفلة « ذِكر » دولية خطيرة ، فيتنافس سفراء الدول ومُحَمَّدَاءُ الأُمَمِ في
تأدية هذا « الذِّكر » بين الإنشاد والتطوُّح . . . فسا ينتهي الحفلُ ،
حتى يُرَوِّا مستبشرين مُفْتَرَّةً ثغورهم عن بَسْمَةِ الرضا والإطمئنان ، فإذا هم
قد تَلَاقَوْا على هَوَى واحد ، وإذا هم قد تَلَافَوْا بذلك ما كان مُوشِكًا أَنْ
يَنْشَبَ مِنْ عواصف الشُّرُورِ ! . . .

فلنسارعُ إلى تجربة « وَصْفَةِ » الذِّكْرِ والزار .
ولنُعِدِّ لها العُدَّةَ مِنْ أنواعِ البُخُورِ الزَكِيِّ .
ولنُجَنِّدْ كِبَارَ المغنين والمغنيات يُنشدون في هذه المحافل الجديدة .
ولنتهيًّا لِإِقْتِحَامِ المَيْدَانِ عَلَى دَقِّ الطُّبُولِ !

العالم بين شقّي رحي

العالم على وجه عام ، يتنازعه اليوم عنصران أصيلان ...

الأول : العنصر « السّلافيّ » .

والآخر : العنصر « الأنجلوسكسونيّ » .

ولسنا في مقام التكهن بما يكون من تغلب أحد العنصرين على الآخر ، ولكننا نُلقي نظرةً على العنصر « الأنجلوسكسونيّ » الذي ترَبُّطنا به وشائج وثيقة ، والذي هو أقربُ إلى أفهامنا منألا . .

هذا العنصر - فيما يبدو - جبهة واحدة ، ترسّم خُططا للنظام الإجماعي العالميّ . . . ولكن لا يُعوزنا أن تتبين ضروبا من الخلاف وانقسام الرأي ، تجعل ذلك العنصر في حقيقة الأمر شطرين اثنين :

أحدهما : إنجليزى . والآخر : أمريكى

فما مرجع هذا الخلاف ؟ وما علة ذلك الانقسام ؟

لو سألتَ إنجليزيا : من هو الأمريكى ؟

لرأيتَه يرأو إليك بعينيه الزرقاوين ، وملاحة الصلابة ، وهو جالسٌ جلسته الجافية ، وفي فمه « غليونُه » الخالد ، وكأنه يفكر في مشكلة مستعصية ، ثم إذا هو بعد لأي يقول في لهجة إهمال وزرارية :

ليس الأمريكيّ - في حقيقة أمره - إلا إنجليزيًا هجينًا ، عبثتْ
به يدُ الاختلاط ...

ولو أقيمتَ على الأمريكيّ سؤالك : من هو الإنجليزيّ ؟

لأجابتك خفيفَ النَّبْرة ، مُشرقَ الطَّلعة ، قائلاً :

ليس الإنجليزيّ إلا أمريكيًّا من العصر الحجريّ !

ثم يُتبعُ قوله بقهقهة كأنها وَصلةٌ موسيقية تتبَعُ صوتَ الغناء !

كلاهما لا يخالو قوله من صدق ...

فالأمركيّ - فيما يرى الإنجليزيّ - ما هو إلا إنجليزيّ في نسبه

ومَحْتَدِه ، ولكنه فقدَ على الزمان دمَ النَّسب ، وروحَ العنصر ، بما تفتش

فيه من مزج واختلاط . فهو اليومَ أشدُّ ما يكون حاجةً إلى وصاية

إنجليزية ترعاه وتحاول اتخاله وتصفيته ، وتنفُثُ فيه مقومات العنصر

« الأنجلوسكسوني » ، حتى يستقيم عوده ، ويسترد ما فقد من خلوص

جوهره ..

والإنجليزيّ - فيما يراه الأمريكيّ - ما هو إلا أخ له وصنو ، بيد

أنه أمريكيّ عتيق ، أكل عليه الدهر وشرب ، وأضرَّ به البقاء في موطنه ،

فلم يتجدد بالرحلة والانتقال ، ولم يكنسب من حيوية التجارب دماً فتياً

يبعثُ فيه الحمية والنشاط ... وهو اليومَ أشدُّ ما يكون حاجةً إلى

وصاية أمريكية تجدد شبابه ، وتنفُثُ فيه النضارة والفتوة ، وتخرج به

من غياهب التقاليد والجمود ... حتى يستطيع أن يساير ركبَ الزمن

في شقِّ الآفاق !

الأمريكية طابعها الفورة والإنطلاق والإقتحام ، لا عائق من سدّ أو قيد . . . وسرُّ هذا الطابع أن الأمة الأمريكية تلتقي فيها أخلاط من الأمم ، وأشتات من العناصر ، انزعجت من منابتها ، وألقى بها في ذلك الميدان الجديد ، فانقطعت صلتها بالأصول ، وأصبحت حرّة طليقة لا يعتاق خطأها رعاية لماض ، أو تأثر بقديم ، أو احتفاظ بعموروث . . . ومن ثمّ تروعك في الحياة الأمريكية ألوان من المتناقضات . فمن طهرية متزمّنة ، إلى إباحية جارفة . ومن اشتراكية متطرّفة ، إلى رأسمالية عارمة . ومن مثاليات رقيقة ، إلى سخافات يشيع فيها الابتدال . ولهذا المتناقضات جميعا مُتنفّس في ذلك البلد الرّحّب الحرّ ، تنافس وتغالب ، وتحاول أن تثبت أحقيّتها وكفايتها في الوجود !

أما الإنجليزية في جزيرتها التليدة ، فليست إلا قالباً مكيناً قد عمل الزمن عمله في تماسكه وتجمعه ، حتى أصبح متميزاً بعقلية راتبة ثابتة متجانسة .

الأمريكي مغامر ، حياته تجارب متواصلة ، ليست على غرار سابق . وهو يقوم بها مدفوعاً بفطرته وبداهته على أيّ نحو تكون ، لا يفكر في العقبى كيف تجيء . ومن ثمّ كان بلد الأمريكي معمل الاختراع ، ومعرض الطرائف ، في كل مرّفقٍ من مرافق العيش . . . وإن كان كذلك بلد العثرات المختلفة في التجارب والمحاولات . وتلك سنّة الكون ، وطبيعة الخلق والإنشاء .

ولكن الإنجليزية في جزيرته إذا خطا فكر طويلًا كيف يضع

قدمه ، وإذا سارت تَهَلَّ واتَّاد ، لَمْ تُعَوِّزْهُ القُدوة ، ولم يَعِزَّ عَلَيْهِ الإِحتذاء ، ولم يَجِدْ من نفسه حافِزاً إلى قفز وموآثبة . وهو دائماً يَتَلَقَّتْ حوَالِيهِ يَتَبَيَّنُ سِوَالفَ التَّجَارِبِ ، وَعِوَاقِبَ الأَحْدَاثِ ، خَشِيَّةَ التَّعَثُّرِ وَالإِنزِلاقِ لا يَتَوَخَّى خُطَّةً ولا يَسْلُكُ طَرِيقاً إِلا إن تَمَلَّكَ نَاصِيَةَ الأَمَانِ !

وربما كان أوضح ميدانٍ لذلك التخالف في الطابع بين الإنجليز والأمريكيين ، هو ميدانُ السِّياسة .

فالأمر يَكُنِّي في هذا الميدان ذو وجه جديد ، فليس له تقليد يرتبط به ، وليست له سابقة يبحث عنها لينتهج مِثَالَهَا . وإنما يعالج ما يَطْرَأُ من شئون السِّياسة بوحى الساعة ، وَعَفْوِ الفِكرِ . ولذلك تعددت في خُططه وقراراته زَلَّاتُ الإِسترسال ، ومزلقُ الإِرتجال !

فأما الإنجليزى فإنه سياسى تليد ، لسياسته أعراق تنفذ في غواير الأحقاب . وهو فيما يعرض له من المشكلات والأزمات يستهدى ماضياً عميق الجذور ، ويترسم مبادئ موروثة لا يبغي عنها حِوَالاً . ولذلك تَسِمُ السِّياسةُ الإنجليزية في كثير من موافقها بالإستمداد من المنابع القديمة ، بيد أنه استمداد مَرِنٌ يتشكّل وَفَقاً لِلطَّوَارِئِ والأَحْدَاثِ !

وفي طبيعة ما يتباين فيه الأخوان : الأمريكى والإنجليزى ، أن الأول - طوعاً لفتوته وتنوع منابته - نزاعٌ إلى الخيال ، وهذا ما يدفع به إلى المغامرة والتهور في كثير من الأحيان .

على حين أن الآخر - طوعاً لأصالته وحُكْمَتِهِ - أميلٌ إلى الحقائق العملية .

فالإنجليزىّ يعمش بعقلية التاجر الدرب ، وسياسته في كل عهد
أمبراطوريته تسير على هدى من هذه العقلية وحدها ، عقلية التاجر ،
تلك التي تتعاقب عليها حظوظ الكسب والخسار ، والفوز والإخفاق .
ومعلوم أن نواة الثورة الأمريكية على الاستعمار الإنجيزىّ كانت
ضريبة الشاي التي فرّضها التاجر - أعني : السياسىّ - الإنجيزىّ على
أهل البلاد ، فثاروا به ، وألقوا ببضاعته في مُصْطَخَبِ الموج ، وما لبثوا
أن أجلّوه جلاءً إلى غير رجعة !

ويحدثنا التاريخُ بعيدُه وقريبُه أن الإنجيزىّ استعمار « الهند » أول
ما استعمارها تاجراً يبتغى الربح ، ثم تبعه الجنديُّ الإنجيزىّ يوطد
في ربوع « الهند » قدم التجارة . وهاهو ذا وقد أتم مهمته ، يجلو عن تلك
البلاد ، تاركاً التاجر الإنجيزىّ الأصيل يواصل عمله في طمأنينة وسلام !
وإنا لنرى اليوم هذا التاجر ، وقد أثقلته حمولته ، وبهظته تبعاته ،
وهو في ملتطم العباب ، يعالج أن يبلغ الشاطئ ، ناجياً بنفسه من غرقٍ
وشيك ، فلا يجد من وسيلةٍ وحيلةٍ إلا أن يتخفف مما به ، وأن يُعقِّق
ما يحمله ، فإذا هو يُلقي عن كواهله ما يعوق حركته في صراع
الأمواج ، حتى يستأنف عهداً جديداً من حياته التجارية ، خالصاً من
أوقار الماضي وأثقاله . . .

ولو أردت تمثيلَ الأمريكىّ والإنجيزىّ لكان أقربَ شَبَهٍ إلى
الأمريكى ، هو الفتى الحديثُ العهدِ بِإرثِ عريض ، الفتى الطروبُ
الممرّاحُ يزهو بمالٍ وصحةٍ وشباب . وليكان أقربَ شَبَهٍ إلى الإنجيزىّ

هو ذلك « الجنتمان » الهرم ، يريد أن يستبقى ما يسعه استبقاؤه من فضالة ثروته ، وأنقاص صحته ، وذمء حياته . فهو بمظهره المتحفّظ المتزمت يغالب الأقدار وتغالبه .

وعلى الرغم مما ترى من خلاف بين الإنجليزى والأمرىكى مايزالان يسيران جنباً إلى جنب في ركب الحضارة . . . فقد استيقن كلاهما أنه متمم لصاحبه ، وأن اعتزاله يعرّضه للخطر .

والأمّتان الإنجليزية والأمريكية كأنهما « برلمان سكسونى » ، يقتعد الأمريكى مجلس نوابه ، ويقتعد الإنجليزى مجلس شيوخه . وفي هذا البرلمان تتكئل السياسة السكسونية التي هي مزاج طريف بين ما الأمريكى من طفرة ونزق ، وما للإنجليزى من محافظة وتوقر . . .

وهذا العنصر السكسونى بشطريه يحاول أن يضع العالم بين شقّ رحاه . . .

فماذا يكون نصيب العالم من هذه المحاولة ؟
هل يكون نتاج هذه الرّحى جمعجة جوفاء تصدع الرعوس ،
أو طحنا يسبغ الخير والبركات ؟ !

الدنيا هي

بيننا وبين سنة ألفين خمسون من الأعوام ، ولا مِرْيَةَ أن هذه
الحِقْبَةَ تَطْوِي بين جوانحها عجائب من المخترعات في مرافق الحياة ،
وسيكون من أثرها أن يَلْحَقَ التغييرُ أساليبَ العيش في المأكل والملبس
والسكنى . وكذلك لا بدَّ أن تتقدم وسائلُ الانتقال ، حتى لقد تجاوزُ
مَنَحَ الخيال !

معجزاتٌ فائقةٌ ننتظرها ونستشفُّ أطرافها في أفق المستقبل القريب
ولسوف تجعل العالم يحيا في دنيا جديدةٍ تتجلى فيها عبقريةُ المدنية
والتحضُّر . . .

وليسكون للإنسان في صميم كيانهِ نصيبٌ موفور من ذلك كله ،
نصيبٌ يحفظُ له صحته ، ويمدُّ في عمره . ويواتيه بخلاف أسباب الوقاية
ووسائل العلاج .

ولكن هذا الرُّقِّيُّ المرتقَّب في شتَّى مرافق المجتمع البشري . هل
يتعدَّى في حقيقة أمره الجانبَ الشكليَّ الظاهر من حياة الإنسان ؟
هذه المخترعاتُ ، وإن بلغتْ شأوها الأقصى ، هل تغلغلُ إلى جوهر
النفس الإنسانية وخصائصها الثوابت ؟

أ كافيّةٌ مئآتٌ من السنين ، بله خمسين ، في تطوير الجنس البشري
وتقلبه من حالٍ إلى حالٍ ؟ .

إن وراء البشرية رُكاماً من القرون يقبلُ الغلو في الزيادة أكثر مما
يقبل التحديد والنقصان . . . ولقد أدرست هذه القرون قواعد من الغرائز
والمنازع في قرارات النفوس ، فهي تأتي أن تلبين لمؤثراتٍ مُحدثة تُعدُّ
أهمّها مئآت السنين

مثل الإنسان فيما يتقلب فيه من مختلف الحضارات ، كمثلها فيما
يستبدل من الثياب . . . فهو ينشئ الحضارة الجديدة ، كما يتخذ الملبس
القشيب ، بعيد أنه هو هو على اختلاف عهوده في التعضّر ، كما أنه هو
هو على اختلاف ما يلبس من أزياء ! .

تقول الحكمة البالغة :

التاريخُ يعيدُ نفسه .

وايس للتاريخ موضوع إلا ذلك الإنسان ، فهو الذي يُعيد نفسه
مرةً بعد مرة ، وهو الذي يكرر شخصيته الواحدة في حيواته المتعاقبة ،
وإن تباينت فيه الصور والألوان .

إننا لنسأل :

هل تخرج هذه الكائنات البشرية يوماً عن طبيعتها ، فتبدل
خلقاً آخر ؟ .

هل ينتظر هذا الكوكب الأرضي ، في يوم قريب أو بعيد ، أن يدب
على أديمه إنسان جديد ، خالص مما ترسّب فينا من غرائز وتزعّات ؟ .

أكبر الظن أن أعظم المخترعات شأنًا ، لن يكون إلا وُقودًا تصطبغ لمرم
به غرائزنا الأصائل ، وتقوى به نزعاتنا الشوابت . فالحق أننا بهذه
المخترعات على اختلاف غاياتها ، نرضى في أنفسنا أهّات الغرائز من التلبّة
والسيطرة وتنازع البقاء .

ما أبطأ الغريزة في التطوّر ، وما أعصاها على التحوّل !
إنها وليدة البيئة ، فلا بد أن تعمل البيئة على تغييرها حتى
تنقاد وتستلين .

ولست أعنى بالبيئة تلك الظواهر المصنوعة ، والقشور الزائفة ،
وإنما عنيتُ بها البيئة الطبيعية التليدة التي تزداد تأثلاً وتأصلاً على
مرّ الأحقاب .

والإنسان في حياته الحضريّة ، قسمةٌ بين عقله وغريزته ، وهما
مختلفان في مدى استعداديهما لقبول التطوّر . . .

العقلُ نزاعٌ إلى التجدّد ، ولوعٌ بالاستحداث ، مجتهدٌ في التغيير
والغريزة صلبةٌ جامدة ، حريصةٌ على ترأّسها العتيق ، تحفظ به ، ولا تنزل
عن شيءٍ منه

إذا نشطَ العقلُ مخترعٌ ، فوّاته التوفيق ، ودانت له معجزات
ترقى به في سلّم الحضارة ، ألقيناً الغريزة تعمد إلى مجهود العقل ، فتطوّرعه
لخدمة أغراضها ، وتحقيق غاياتها ، لا يعتاقيها في سبيل ذلك شيء .

لا يخذعك ما ترى من بريق المديّات ، وما يتشدّق به الإنسان
من رُقيّ الإنسان .

وراء ذلك الستار من الطلاء، يكمن الأدمى الأصيل ، يتسم
ابتسامة الشُّخْر والإستهزاء بتلك الأوهام والأخاديع !
الإنسانُ هو الإنسان ..

تسأى به العقلُ من أعماق الكهوف إلى أطباق القصور ، ولكن
الغريزة أبقتَه محكومَ النفس على اختلافِ حالاته بشريعة الغاب !
ما زالت « الحرب » في عصر العبقرية العلمية والسمو الحضريّ ،
هي الفيصل الأخير فيما ينشَب بيننا نحن الأدميين من مخاصمة ونزاع ،
فهى — إلى يومنا هذا — أوضح مظهرٍ لتنازع البقاء بين الشعوب .
ظلت « الحربُ » في ركاب الإنسان تُسايِرُه ..

فالمعارك العالمية التي شهدنا معمعانها ، هي في حقيقتها وجوهرها
تلك التي كانت تدور بين الإنسان والإنسان في عصور ما قبل التاريخ .
ولا فرق في الحقيقة والجوهر بينها وبين المعارك التي تقوم بين الحيوان
والحيوان في سبيل حفظ الأنواع .

الحربُ أداة طحْنٍ وغرْبله ، تعملُ طوعاً لغريزة السيطرة ، ووفقاً
لحقيقة « بقاء الأصلح » . وعند رثى وحدَه علمُ هذا « الأصلح » :
أى شيء هو ؟ وما عناصر « صلاحيته » على الوجه الصحيح ؟ .

لعمرك إن النفس ما برحت هي النفس ، خالدة النزعات والشهوات .
هذه شهوةُ التشقّي والانتقام ، شهوةُ التشكيل بالمغالوب على أمره ،
لقد تجلّت في الحرب الأخيرة أبشع ما تتجلى ، فإذا هي تزداد قساوة
وضراوة عما كانت عليه في العهود التي نلقبها عهود الوحشية والظلام !

هذه نزعَةُ المغامرة والمخاطرة ، تلك النزعَةُ التي تتَّسِمُ بالجرأة
والتهوُّر ، مستمِدَّةٌ وَقُوْدُهَا من غريزة الهيمنة والتأثر ، لقد تبدَّتْ صوراً
وألواناً في المجتمع الإنساني ، ولكنها لبثتْ خالدةً لا تنالُ منها رفاهيةُ
المدنية ، ولا تُخَمِّدُهَا رخاوةُ الأمنِ والطمأنينة ، فاتخذتْ لها على تماقِبِ
العهود صوراً جديدةً ، وألواناً أُخَرَ . . .

وفي الحقِّ ليس إنسانُ اليوم أضعفَ جسارَةً وتعريضاً للمخاطر من
إنسانِ الأُمس ، وليس أهونَ منه إنكاراً للنفس وسماحةً بالفداء واحتمالاً
للمكاره والصَّعاب . فإن أعمالَ البطولة في ركوبِ البحار كَشَفًا عن
المجهول ، وفي اعتلاء الطائرات ذهاباً إلى الأقصى ، وفي حملِ المهلِكَاتِ
توصلاً إلى الأهداف ، لا تنزلُ درجةً عن أعمالِ البطولة التي سجلها التاريخُ
للإنسانِ القديم ، توطيداً لسلطانه ، في مؤتَنَفِ زمانه !

لقد تغلغلت الغرائزُ والنوازع ، حتى أصبحتْ جزءاً في بذرة الحياة
لا ينفصلُ ، فلما نَطَمَحَ إلى إنسانٍ جديدٍ بمنجاةٍ من هذه الغرائزِ
والنوازع ، يجب أن نُغَيِّرَ تلكَ البذرةَ .

فهل هناك اختراعٌ يبسِّرُ لنا أن نستبدلَ بغرائزنا العاديةِ غرائزَ

مستحدثاتٍ ؟

هل في استطاعتنا أن نتحكَّم في النفس البشرية ، فنخضع نزعاتها

على وَضْعِ خاصٍ ؟

أقادرون نحن يوماً على تشذيبٍ وتهذيبٍ لتلك الغرائزِ العَصِيَّةِ والنوازعِ

المتمرِّدة ، حتى يتسنى لفلاسفةِ المُثُلِ العليا أن يظفروا بالإنسانِ الكاملِ ؟

لو أن لنا طاقة بهذا كله ، لَتَمَّتْ المعجزة ، ولأدرك الإنسانية
انقلاباً لا عهد لها بمثله في عُمرِ التاريخ .
في مقدورنا أن نتمثل حدوثَ تلك المعجزة الكبرى . . .
فليت شعري . أ يكونُ ذلك لخير البشرية أم لشرها ؟ لازدهارها
أم لإضمحلالها ؟ لبقائها أم لفنائها ؟
لعلَّ أصدقَ الجواب ما جادت به منذُ أربعة عشرَ قرناً فِطْرَةُ بدوية ،
هي فِطْرَةُ الشاعرِ العربيِّ « زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ » إذ يقولُ :
وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ
وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدِ عَمِي !

ذِكْرُ الطَّيْلِ الْفَتَانِ

احتدم النقاشُ في شأنِ الصَّحْفِيِّ الناجحِ ، في هذا العصر :

كيف يكون ؟

وأى المؤهلاتِ أدعى إلى نجاحه وتبريزه وذُيوعِ اسمه ؟

ولم تلتقِ الأفكارُ في هذا الصَّدَدِ على رأى واحد ، أو تُجمَعِ على

نتيجة حاسمة .

فكُتِبَتْ إلى صديقي « عزُّوز » ، وهو الذى أفرعُ إلى رأيه كلما

أعضلتُ مشكاةً ، وحزبَ أمر . . . فكان عند ظنِّي به ، وما أسرعَ أن

وردنى كتابه يُفتِنِي في شأنِ الصَّحْفِيِّ العصريِّ الموفِّقِ

قال - نفعنى الله بعلمه ، وأخْلَانِي من تبعَةِ فتواه - :

« إليك أيها السائلُ الكريمُ جوابُ ما سألتني فيه

وأُسَلِّفُ إليك الشكرَ على أن اخترتني لهذه المهمةِ وحسنًا فعلتَ ،

فمن غيرى خبير بهذه الشؤون ، وأنا ريبُ الصَّحَافَةِ ، غَدَّتني لِبَانُهَا ،

وعرَّكتني رحاها ، فذُقتُ من عُصارتها الحلوَ والمرَّ ؟

وقبل أن أمضيَ في إجابتك عن سؤالك ، أسترعى نظركَ إلى أن

حديثي سيكون خاصاً بالصَّحْفِيّ الذي تتطلبه مُقتَضِيَّات حياتنا الراهنة ،
وملابساتنا الحاضرة .

وأما الصَّحْفِيّ المثاليّ أو النَّمُوذَجِيّ الذي تتمثله الأذهان المتحفّظة ،
ويعصّره منطق العقل الجامد . فذلك ما لا يرقي إليه حديثي إليك . إذ أن
هذه الشخصية لا تُصِيبُ في مُحِيطنا القائم أيّ نجاح .

نظرةٌ إلى بيئتنا ومجتمعنا اليوم تُرينا أن الأوضاع العامّة والأنظمة
المقررة في مختلف المناحي قد انقلبت رأساً على عَقَبٍ . . . ومن الحماقة
الحُكْمُ الآن على هذا الانقلاب : أَعْلَى هُدًى هو أم في ضلال ؟

وليست الصَّحَافَةُ الإولِيْدَةُ البيئَةُ ، وصورة العصر ، ومرآة تنعكس
على صفحاتها بدوّات هذا المجتمع الجديد ونزواته .

ومعلوم أن العمود الفقريّ للصَّحَافَةِ الحديثة ، هو «الإستطلاع» ...
فلا بدّ أن تزخر الصحيفة بالإستطلاعات الطريفة البرّاقة ، وما تشتمل
عليه من تعليقات خاطفة على الحوادث الجارية ، وسبّقى في تقديم أحدث
الأنباء والشئون ، على أن يكون ذلك في إخراج شائق جذاب . . . وتلك
هي أبلغُ العوامل أثراً في تحبيب الصَّحِيفَةِ إلى القارئ ، وفي إغرائه بما
تزوِّفه إليه من زاد .

وإذن فقدرة الصَّحْفِيّ الحديث هي براعته في التقاط هذه
« الإستطلاعات » ، والتفنّن فيها ، واستجلاء دقائقها المحبّبة التي تثير
الانتباه ، وتروي ظمأ الفُضُول . . .

إذا قلت : صحفّي حديث ، ابنُ يومه ، وكفءُ عصره ، فقل :

طَفِيلِيَّ فَنان ، يُرْضِي بما يقدم لنا من استطلاعِهِ نِزَعَةَ التَّطْفُلِ الكامنة
في نفسِ الإنسان !

ولا يَتَسَنَّى لِطَفِيلِيٍّ أَنْ يُظْهِرَ عبقريته ، ويُوَدِّيَ مهمته ، إلا إن أوتِيَ
شهيَّةَ سَمَّحَةٍ ، ومَعِدَّةً هَضُوماً . فهو يقبل على مختلف الألوان ، وأشتات
الطعوم ، لا تَأْبَى نَفْسُهُ منها أَى لَوْنٍ ، ولا تَضِيقُ بأى طعم . . .

فكذلك الصحفي الذي هو المثلُّ الأعلى للطفيلية الفتنانة ، لا بد أن
يكون واسعَ الصدر ، رحيبَ الأفق ، حاضرَ الحيلة ، خفيفَ الحركة ،
رَكِينَ الأعصاب ، يرتادُ مجامعَ الناس ، وأنديةَ الطبقات ، لا تَتَكَبَّرُ
نَفْسُهُ عن أدنى مستواها ، ولا تصغرُ عن أعلى ذروتها . . .

فهو في بواكير النهار تَلْمَحُهُ مُنَدَسًا بين مُلَّةٍ من رجال الشرطة ،
يحاول أن يتشمَّم أنباءَ فاجعةٍ تَمَخَّضَ عنها الليل . . .

ولا يكاد ذلك الطفيليُّ البارِعُ يُشْبِعُ نَهْمَهُ ، حتى تراه قد احتواه
سرادقُ نخمٍ ، في أقمعي المدينة ، للاحتفالِ بوضع حجر الأساس في مُنْشَأَةٍ
جديدة ، حيث يتوافدُ الكبراء من أهل الحِلِّ والعقد . فإذا هو واقف
يترصدُ للصيد . . . وما هي إلا أن يُنْشِبَ مخالَبَهُ في الفرائس ذات اليمين
و ذات الشمال ، يقطع ما وسعه أن يقطع ، ولا يلبثُ أن يزدرد غنائمه
على عَجَل !

وسرعان ما يتركُ الحفلَ إلى أقرب « تلفيون » فيصُبُهُ سوطاً عذابٍ
على عباد الله الآمنين ، يَضْمَنُ لنفسه مواعيدَ جديدةٍ تحفِلُ بألوان شهيَّة
من طرائف الأخبار والموضوعات .

وَيَظَلُّ صَدِيقُنَا الطَّفِيلِيَّ جَانِحًا عَلَى « التِّلْفُونِ » حَتَّى يُفْقِدَهُ الْأَنْفَاسَ .
فَيَتَنَحَّى عَنْهُ مَتَمَنِّيًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ تُسَعِّفَهُ الْأَقْدَارُ فِي سَاعَةِ الْأَصِيلِ بِجِنَازَةٍ
حَارَّةٍ يَسْتَكْمَلُ فِيهَا شَهْوَاتِهِ إِلَى اصْطِيَادِ الْغَنَائِمِ مِنْ أَفْوَاهِ الْعِلْيَةِ وَالسَّرَّاءِ
بَيْنَ الْمُشَيِّعِينَ !

وَمَا إِنْ يَنْفُضُ عَنْ كَتْفِيهِ عُبارَ التَّشْيِيعِ حَتَّى يَمَجَّلَ إِلَى ارْتِدَاءِ حُلَّتِهِ
السُّودَاءِ الْفَاخِرَةِ ، مَتَأْتِقًا مَتَظَرِّقًا ، لِيَسْتَقْبَلَ الْوَارِدَ فِي حَفْلَةٍ سَاهِرَةٍ مِنْ
حَفَلَاتِ الْمَجْتَمَعِ الرَّفِيعِ وَلَا يَفْتَأُ يَجُولُ وَيَصُولُ ، حَتَّى يُجْهَزَ عَلَى الصَّفْوَةِ
مِمَّنْ أَلْقَى بِهِمُ الْقَدْرَ فِي شِبَاكِهِ ، فَيَعَادِرُ الْحَفْلَ يَتَلَمَّظُ فِي الطَّرِيقِ !
وَبَعْدَ سَاعَةٍ أَوْ نَحْوِ سَاعَةٍ تَشْهَدُهُ أَخَاسِفِرٌ ، يَحْمِلُ فِي مُنْأَاهِ حَقِيئَتَهُ ،
وَيَتَّخِذُ طَرِيقَهُ إِلَى الْقَطَارِ ، لِيَسَامَهُ فِي مَطْلَعِ الْفَجْرِ عِنْدَ قَرْيَةٍ جَدَّةٍ مِنْ
أَمْرِهَا طَارِيءٌ عَجِيبٌ ، لِيَتَبَلَّغَ فِيهَا بِمَا يَتَيَسَّرُ لَهُ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ .
الطَّفِيلِيَّةُ الْفَنَّانَةُ لِأَغْيَرِهَا ، هِيَ حَجَرُ الزَّاوِيَةِ فِي مَوْهَبَةِ الصَّحْفِيِّ الْجَدِيدِ !
وَلِهَذِهِ الطَّفِيلِيَّةُ الْكُرْمَةُ عُنَاصِرٌ لَا بُدَّ أَنْ تَتَوَافَرَ ، لِكَيْ تَنمُوَ نَمْوُهَا ،
وَتُوْتِي نَارَهَا طَيِّبَاتٌ . . .

وَلَسْتُ أَنْغَلُو إِذَا قَلْتُ : إِنْ عَلَى رَأْسِ هَذِهِ الْعُنَاصِرِ الْمُنشُودَةِ عُنْصُرُ
اللَّجَاجَةِ السَّائِغَةِ . . .

فَالصَّحْفِيُّ الْمَوْهُوبُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُحْيِلَ هَذِهِ الصِّفَةَ الْبَغِيضَةَ عُنْصُرًا
لَطِيفًا عَظِيمَ الْأَثْرِ فِي إِبْلَاجِهِ مَآرَبَهُ ، دُونَ تَنْفِيرِ وَلَا اسْتِكْرَاهِ .
وَعَلَى قَدْرِ اسْتِخْدَامِ الصَّحْفِيِّ لِهَذَا الدَّوَاءِ النَّاجِعِ ، يَتَوَقَّفُ نَجَاحُهُ
فِي الْحَصُولِ عَلَى مَا يَرِيدُ ، وَقَمَا يَرِيدُ

وفي مقدمة العناصر اللازمة عنصرُ التلوُّن اللائق الكيِّس ، يتخذ الصحفي من ضروبه وأفانينه ما يوائم كلَّ موقف ، ويلائم كلَّ مقام فهو في طريقه إلى شيخ الدين رجل متزمت متحفِّظ ، يُنقل بين أصابعه حَبَّاتِ سُبْحَتِهِ في تَمْتِمة وترتيل .

وما يزال مُتَنَمِّسًا متشعلبًا حتى يظفر من شيخ الدين بكلمة عابرة في معرض مجاملة ، فيصهرها الصحفي في بُوقْتِهِ ، ويخرجها تصریحًا خطيرا في موضوع دقيق شائك قد يتحفِّظ من مثله الغالون في الحرِّيَّة والإِنطلاق !

وتراه في مجلس زعيم الحزب نصيراً له ، يتلهَّب حماسة المبادئ ، وغَيْرَةً على سُمعته ، وذووداً عن موافقه . وما هي إلا أن يستلَّ من فم ذلك الزعيم نثاراً من أحاديث ، فلا يلبث أن يصطنع منها مادة قنبلةٍ يلقِيها في الميدان السياسي ، تنسبُ بها حَرْبُ عَوَان !

وربما تَلَطَّف ذلك الطفيليِّ الفنان لولاةِ الأمور ، حتى يأذُنوا له في زيارة مؤسسة عامرة ، وهو يُظهِرُ الإِسَادَةَ بفضلها والتمجيد لغاياتها ، ولا يكادُ يجوسُّ خلال المؤسسة ، نافذاً بأنظاره خلف أستارها ، حتى يُوحى إليه شيطانُه موضوعاً تَبَيَّتْ به هذه المؤسسةُ بمن فيها فريسةً لأنيابِ القليلِ والقَالِ

وأنتَ فر بما شهِدْتَ حريقاً مشهوراً في ميادين الحياة العامة من سياسية واجتماعية وما إليها ، وسمعت في أجيج النار أصوات السياسة والزعماء والقادة يتهاثرون ويتصايحون . . ولو وقفت تدقُّ النظرَ

حول هذا الحريق ، لتصيّد بصرُك حتماً صحفياً لبقاً ، وفي يده الذُبالةُ التي أوْقد بها النار ، وهو يتسلّل تسلّل الفأر ، يلتمسُ السبيلَ إلى جُحره الأمين !

ومن لوازم صديقنا الصحفيّ المصريّ ، أعنى ذلك الفنانَ الطفيليّ ، لكي تفتَح له الأبواب ، وتمهِّش له الوجوه ، أن يكون فاخرَ البزّة ، وجية الطلّمة ، عليه طلاوة الأناقة ، وسمات الرّفعة . وأن يكون خبيراً بمختلف الأجوأ ، وعلاقات الأُسْر بعضها ببعض ، وما بين الناس من عوامل الشقاق أو أواصر الوفاق . حتى يستطيع أن يُدير الحديث على بصيرة وهُدًى ، ويتعلّق الأذان بما تهوى . فيكتسب الرضا العامّ ، ويأنس إليه الجُلاس ، فيبوحوا له بمكنون الأسرار والأخبار . . . فلا يترك مجلساً إلا وقد خرّج منه بما لذّ وطاب ، من العجَب المُجاب !

ويا صديقي السائل :

لا يذهبن بك الوهم ، إلى أن هذه الصفات من الهنات الهيئات ، ولا يدفعن بك الغرور إلى أن تحكم عليها حكم الأخلاقيين الجامدين الذين يفكرون ويتفلسفون في معزلٍ عن واقع العيش وحقائق الحياة . . . ليست هذه الطفيليةُ الفنّانةُ إلا موهبة عزيزة المنال ، يختصُّ بها أفذاذ . إذ لا بدّ لتوافرها من أن يكون صاحبها وافي الحظّ من الألمعية والفتنة ، ومن الإلمام بشتّى مناحي النشاط الثقافي والفكريّ والحيويّ في المجتمع المصريّ .

فَمَنْ شَاءَ أَنْ يَكُونَ صَحْفِيًّا نَاجِحًا ، فليختبرْ في نفسه ما أُوتِيَ من
موهبة الطفيلية الفئانة

فَإِذَا قَصَّرَ بِهِ الإِخْتِبَارُ ، فليتخذْ له مجالاً غير الصَّحَافَةِ ، يوافقُ مزايَاهُ .
وَأَمَّا إِنْ آنَسَ فِي نَفْسِهِ هَذِهِ المَوْهَبَةَ العَالِيَةَ الكَرِيمَةَ ، تزدهر
بؤهلاتها الطريفة ، فليضربْ في الميدانِ ، تحدوه الثُّقَّةُ والإِطْمِئْنَانُ . . .

« عُرُوز »

ذَلِكَ كِتَابُ صَدِيقِي الذِي اسْتَفْتَيْتُهُ ، فَأَفْتَانِي بِهَذَا الجَوَابِ ، وَمَقَامُهُ
عِنْدِي يُضْرَفُنِي عَنِ مَنَاقِشَتِهِ الحِسَابِ !

جُبُودٌ مَجْهُولُونَ

في السوق السوداء!

نحن نعيش في عصر انتقال ، نحاول فيه أن نتخلص من ماضٍ له
أثقاله ومساوئُه ، لنحيًا حياةً جديدةً نسايرُ فيها ركبَ الحضارة ، وتكاملُ
في الفردِ . منا شخصيةُ الإنسان المتمدّن . . .

فهذا العصر الذي نعيش فيه ، هو عصرُ اضطرابٍ وتقلقلٍ بطبيعة
الحالٍ ومن عاش في عصرٍ كهذا لا يسأل :
ما هي الأوضاع التي يجب أن تزول ؟
لأن أكثرَ الأوضاع حقيق بالزوال .

ولعل السؤال الصحيح يجب أن يكون على هذا النحو :
ما هي الأوضاع التي يحسُنُ أن نستبقيها ، فلا نُعملَ فيها بمعولٍ
الهدمِ والانتقاضِ ؟

على أنه ليس من العسير أن نتصوّرَ هذه الأوضاع التي يجب أن
ندعوَ إلى إزالتها ، فهي كالشوامخ لا تخفى على الناظر .
ولكنني أؤثر أن أتجنبَ تلك المسائل الكبرى ، وأن أتسللَ إلى
الزوايا أُنْبِشُ بعضَ ما فيها مما يبدو للعين صغيراً لا خطرَ له ، وإن كان له

في الحقيقة كبير الخطر . فما أشبهه بالشوس يدب في خفية وعلى مهل ،
فيقوض - من حيث لا تنتبه - أركان البنيان .
وربما كان أظهر ما في الزوايا ذلك الشوس الذي نُسِّميه « التَّسْوُل »
أو الإستجداء

ولا يُسرِعَنَّ إلى وهم القارئ أني أعني أولئك السائلين من الفقراء
والمحايج الذين يطلبون الصدقات ، ممن تزخر بهم أعطاف الطريق . . .
فإنه فإلَّا خطب و هؤلاء على لجاجتهم وإلحاحهم يسير . وإنك لمستطيع
أن تختار بين اثنتين :

فإما قضيتَ ما رُبَّهم بفلول النقود ، ومنتور الدراهم .
وإما ردَّدتهم عنك بالكلمة الخالدة : « على الله ! » . . . والله
واسعُ العطاء !

ومهما يكن من أمر هؤلاء ، فإن فيهم فضيلةٌ تُكسبهم شيئاً من
الإحترام ، وهي فضيلة الصراحة . فإنهم يواجهونك بالسؤال ، مُسْفِرِينَ
لك عن غرضهم في غير خديعة أو تحييل أو التواء .
وهم - لإتكشاف أمرهم - لا يصعبُ علاجهم على أحد . وفي
مقدور الحكومة إذا ضاقت بهم أن تتخذ في شأنهم تدبيراً حاسماً يخفف
من وطأتهم ، أو يستأصل شأقتهم من الطرقات والسُّبُل ، بأن تريد
القادرين منهم على العمل ، وتؤوى العاجزين في ملاجئ تكفيهم
مؤونة السؤال .

وإن مثل هؤلاء المُستجدين جَهْرَةً وعلانية ، كمثل الأسعار الظاهرة

للسَّلْعِ فِي السُّوقِ الْبَيْضَاءِ ، بِيَدِ وِلَاةِ الْأَمْرِ أَنْ يَرُدُّوْا غَلَاءَهَا وَيَكْفُوْا
غُلُوْاءَهَا بِالتَّسْمِيْرِ الْجَبْرِئِيِّ ، يَفْرِضُوْنَهُ بِسُطُوْةِ الْقَانُونِ .

فَأَنَا لَا أَعْنِي إِذْنَ هَذَا الصَّنْفِ مِنَ السَّائِلِيْنَ ، وَإِنَّمَا أَعْنِي صِنْفًا آخَرَ ،
مِثْلَهُ فِي الْإِسْتِجْدَاءِ كَمِثْلِ السُّوقِ السُّودَاءِ فِي عُرُوضِ التَّجَارَةِ !
فَذَلِكَ هُوَ الصَّنْفُ الْخَطِرُ الَّذِي يَنْفُثُ سُمُوْمَهُ فِي خُفْيَةٍ وَتَسْتَرٍ ،
لَا تَمْتَدُّ إِلَيْهِ أَعْيُنُ الرِّقْبَاءِ ، وَلَا تَنَالُهُ سُلْطَةُ الْحُكَّامِ .

وَالْمُسْتَجِدُّونَ الَّذِينَ أَخْضَعَهُم بِالذِّكْرِ ، يُمْكِنُ أَنْ يَنْقَسِمُوا ثَلَاثَ فِرَقٍ :

الْأُولَى : فِرْقَةٌ « التَّلْفُونَاتِ » .

فَقَدْ تَكُونُ فِي بَيْتِكَ مَطْمَئِنًّا ، قَدْ أَخَذْتَ إِلَى السَّكِينَةِ ، وَأَنْسَيْتَ
إِلَى قَدْحِ الْفَهْوَةِ تَرْتَشِفُهُ ، وَإِلَى اللَّفَافَةِ تَسْتَمِرُّ أَنْفَاسَهَا . فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ
يَصِلَ جَرَسُ « التَّلْفُونِ » ، وَيَسْتَبِيْنُ لَكَ أَنَّكَ مَطْلُوبٌ لِتَتَكَلَّمَ مَعَ رَجُلٍ
مِنْ رَجَالَاتِ الدَّوْلَةِ ، لَهُ خَطْرُهُ ، فَتَنْفِزُ مَتَسَائِلًا :

مَاذَا جَرَى ؟ وَأَيُّ شَأْنٍ يَكُونُ ؟

وَتَنْفُضُ عَنْ نَفْسِكَ مُتَعَمَّةَ الْجَلِيسَةِ الَّتِي رَكَنْتَ إِلَيْهَا ، وَتَهَيِّئُ نَفْسَكَ
لِلنَّبِيِّ الْجَلِيلِ ، وَلَا تَكَادُ تَتَحَدَّثُ بِضِعِّ كَلِمَاتٍ حَتَّى يَتَوَضَّحَ لَكَ أَنَّ الْمُسْتَكَلِمَ
نَكَرَةٌ لَا يُبَالَى أَنْ يُقْجِمَ اسْمَ الرَّجُلِ الْعَظِيمِ فِي شَأْنِهِ ، لِيُحْكِمَ رَمِيَّ
الشِّبَاكِ ، وَنَصَبَ الْحَبَائِلِ . . .

وَإِنَّهُ لِيُصِرُّ عَلَى تَوْثِيْقِ الصَّلَةِ بَيْنَ مَوْضُوعِهِ وَبَيْنَ ذَلِكَ الرَّجُلِ

الْعَظِيمِ ، إِنْغَالًا فِي التَّحْيِيلِ ، وَتَمَكِينًا لِلْفَرَضِ .

وبعد مقدمات قد تبدأ بعهد « آدم » ، ينتهي الأمر إلى إخبارك بأن رسولا سوف يقدّم عليك ليقدّم لك سندا بتسلم مبلغ من المال ، مدّعيًا أنه سيُنْفَقُ تشجيعاً لمشروع إنساني رفيع ، أو تأييدا لقضية قوميّة عزيزة ، أو تكريما لشخصيّة لها في النفوس مقام . . . !

الثانية : فرقة الأبواب .

وهي جماعة من الناس يحاصرون أبوابَ الدور ، ويختارون لذلك أوقاتا لا مفرّ لأصحاب هذه الدور من أن يلقوهم فيها مراحاً أو مغدّى .

وجنودُ هذه الفرقة ينقضّون على فرائسهم انقضاضَ الباشق على غنيمته ، باسطينَ أيديهم بمختلف الصكوك عليها الأختام الملوّنة ، والإمضاءات المطلّسة ، يتقاضون بها أجورا لحفلات تقام في رؤوسِ مُدبّريها ، وقيم اشتراكات في صحف لن تُنشر إلا يومَ النشور . إلى غير ذلك من أفانين تتهافت حولها أطماع الكسالى ، فيتخذونها شركا لا يتراز المال !

الثالثة : فرقة الطرق والمسالك .

وهذه الفرقة مُدربة على أحدث الأساليب . فهي متفقة فيما بين أعضائها على توزيع الطرق ، لكل فردٍ منها منطقة نفوذ ، هو فيها الحاكم المتسلط ، والسيفُ المصنّتُ على رقاب السالكين من عبادِ الله !

تَلَمَّحُهُ من بعيد، فتراه يخطو خُطَى الشَّرْطِيِّ المَهِيْبِ ، متخذاً شارة
الإِمارَةِ والاعتزاز .

ويُقْبِلُ عَلَيْكَ لِيُطالِبَكَ ، كأنه رقيبُ الحدودِ ، أو حارسُ الشُّحُومِ ،
يتقاضاك المَكُوسَ وضرائبَ المرورِ !

فهو يتحدَّثُ إِلَيْكَ حديثَ رجلٍ يُوَدِي واجباً رسمياً يستند فيه إلى
قانون ودستور .

وجنود تلك الفرقة يتخذون عُضْرَ المفاجآت العجيبة ، والكوارث
النادرة ، فيجعلون أنفسهم من صَرَعاها ، في التَوَّ والساعة .
ولهم في هذا الباب أقاصيصٌ ، ورواياتٌ مُحْكَمَةُ النَّسْجِ ، بليغةُ
الحوَارِ ، قوية الخيال ، أعترف لها بالفَوْقِ والإمْتِيازِ . . .

وإني لأَتَمَنَّى أن تَسْتَغِلَّ هذه الفرقُ الثلاثُ نشاطها ومواهبها
في مضمار غير هذه المضامير ، سعياً إلى مُجْدِ العملِ ، وشرفِ الكسبِ ،
وكرامةِ الإنسانِ !

قصر الأحلام

المعرّض الزراعيّ الصنّاعيّ الذي رأيتُه هذا العام ، هو في حقيقة أمره معرّضُ «الحالِ» ، أو معرّضُ «الحاضرِ» . . . لقد حفلَ بزُبدَةٍ ما بلغتْهُ حَضَارَتُنَا الصنّاعية والزراعية والاقتصادية ، مصوِّراً في تلك القصور المشيِّدة التي احتوت نماذجَ هذه الحضارة على نحوٍ أنيق .

فذلك المعرّض يُعدُّ بحقٍّ صرّاةً مجلّوةً ليو منّا الراهن ، وحياتنا الماثلة . ولسنا نبحّد قدرَ الجهود التي بُدِئت فيه ، ولا ننكر ما يدلُّ عليه من سلامة ذوق ، واستقامة تفكير .

ولكن اعترافنا بهذا الفضل لا يحول بيننا وبين أن نسأل : أليس «الحاضرُ» قريبَ المنالِ منّا ، نستطيع أن نتعرّفه ، بعضه أو كلّه ، فيما حولنا ، وقتما نريد ؟

وهل «الحاضرُ» هو وحده الذي تصبوا النفوسُ إلى تعرّفه وتصفحه ؟ ثمّة جانبٌ خطيرٌ من جوانب حياتنا الفكرية ، لم يكن له نصيبٌ من عناية المعرّض العتيّد .

ثمّة جانبٌ رفيعٌ تكمن فيه الأمانى والأحلام ، وتحوّم فيه

أسرابُ الأخيلاء والأفكار ، كان من أكبر أمانينا أن نرى له في رحاب
المعرض أكرمَ مقام .

ذلك هو جانب « المستقبل » ، أو « الغد » . . .

كيف غرّبَ عن بال القارئ على المعرض أن يفسحوا مجالاً لقصر
عظيم ، يطلقون عليه : « قصر الأحلام » ؟

في هذا القصر يتجلى ما يجيش في السرائر والأذهان من رغائب
ومطالب ، هي وليدة التصورات والأمانى . . .

في هذا القصر تبرز معروضات نموذجية لما تهفو إليه القرائح
والعقريات ، فيما يكون عليه مستقبل « مصر » القريب أو البعيد . . .

أين نموذج الحياة الريفية كما يتمثلها المصلح الاجتماعي الذي يدعو
إلى تجديد الريف ، وينشد للفلاح رُقياً ونهضة ؟

أين نموذج الحياة التعليمية على النمط الذي يلوح في خيالة المرابي
المثالي ، حين يتغنى بما يجب أن يتحلى به الطالب ، حتى يكون منه
المواطنُ الصالح ؟

أين نموذج الاستغلال الاقتصادي لكنوز « مصر » المجهولة ،
وثروتها الضائعة ، فنرى بقعة من الصحراء قد استحالت - بشروع
عمليّ طريف - قطعة من أرض خصيبة تُنبِتُ أطيب الثمرات ؟

أين نموذج التفطن إلى الانتفاع بخصائص المواطن المصرية التي
تجعل هذا البلد محجاً للسياح ، مثل جبال « سيناء » التي يمكن أن تكون
مشاتي تملغ الأوج في طيب الهواء ؟

أين؟ وأين؟ ثم أين؟ ...

ما أجددَ أن يكونَ « قصرُ الأحلام » ألمعَ جوهرةٍ في تاجِ المعرضِ،
تتضوّأُ منه أشعةُ النفسيةِ المصريةِ في تطلّعها إلى التحضُّرِ، وتوثُّبها للعلاءِ!
لم يكنِ يُعوِّزُ القوَّامينَ على المعرضِ، لتحقيقِ تلكِ الفكرةِ، إلا أن
يُجرِّدوا حملةً من أصدقائنا الأعزَّاءِ، أعني الصحفيين الذين يتولَّونَ
الإستطلاعاتِ، فإنهم أقدرُ على محاصرةِ ذوى القرائحِ النيرةِ من النابغين
في الطبِّ والهندسةِ والزراعةِ والإقتصادِ... وإِنَّهم ليعرفونَ كيف
يُحفِّزونَ هؤلاءِ جميعاً على البوحِ بمكنونِ عبقرياتهم في التخيلِ والتعمُّنِ...
وإذن يكونُ من الميسورِ على الفنانين أن يمثِّلوا هذه الأمانى في نماذجِ
مصورةٍ، وأمثلةٍ مجسَّدةٍ، يتألفُ منها في صدرِ المعرضِ: « قصرُ الأحلام »!

أَتَهْمُ الْأَدَبَاءُ

الأمةُ إلى الأمامِ تسير .
فِيئَاتُهَا تَعْمَلُ ، وَلَا تَفْتَأُ تَعْمَلُ .
وَمَا هِيَ ذِي الْأَسْسِ تَرَسُّخُ ، وَالِدَعَائِمِ تُقَامُ .
هِيَ نَهْضَةٌ تَنْتَظِمُ جَوَانِبَ الْمَجْتَمَعِ ، وَمُخْتَلَفَ مَرَاغِقِهِ .
وَلَيْسَ الْجَانِبُ الثَّقَافِيُّ بِأَهْوَنِ الْجَوَانِبِ حِطًّا مِنَ النَّهْوِضِ .
إِنَّهُ يُؤَسِّسُ وَيَبْنِي . . . فِي ضُرُوبِ الثَّقَافَةِ نَجْنِي مِنَ الْمَطْبَعَةِ ثَمَارًا
فِي التَّرْجُمَةِ أَوْ التَّأْلِيفِ ، تَشْهَدُ بِمُنْضَجِ الْقِرَاحِ ، وَبِرَاعَةِ الْأَقْلَامِ .
مِصْدَاقُ ذَلِكَ أَنَّ نِتَاجَنَا الثَّقَافِيَّ فِي عَشْرِ السَّنَوَاتِ الْأَخِيرَةِ وَحَدَّهَا ،
رَبَّمَا يَعْدِلُ نَظِيرَهُ فِي أَعْوَامِ خَمْسِينَ تَقَضَّتْ قَبْلَ هَذِهِ السَّنِينَ الْعَشْرِ .
وَمَا كَانَ لِتِلْكَ النَّهْضَةِ الثَّقَافِيَّةِ أَنْ تَقُومَ دَوَائِمُهَا وَالْبَلَدُ رَهْنٌ بِإِرَادَةِ
الْأَجْنَبِيِّ الْمَسِيطِرِ . فَكَلِمَا اسْتَرَجَعْنَا مِنْ حُرِّيَّتِنَا السِّيَاسِيَّةِ شَيْئًا ، تَرَا حَبَّ
أَمَامِنَا أَفْقُ الْعَمَلِ ، وَتَوَافَرَتْ لَنَا أَسْبَابُهُ .
حَقًّا أَنْاحَتْ لَنَا الْحُرِّيَّةُ السِّيَاسِيَّةُ فَرِصَةً السَّعْيِ الْمُثْمِرِ فِي الْمِيدَانِ الثَّقَافِيِّ .
وَلَكِنْ !

لكلِّ نَهْضَةٍ مِنْ مُخْتَلَفِ نَهْضَاتِنَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ قَيْدٌ يَتِمُّثَلُ فِي كَلِمَةِ «لَكِنْ»

ولكن يبدو أن الحرية السياسية التي استكملناها في الميدان الثقافي ،
تلك الحرية التي أذابت في بُوتقَتِها كثيراً من السلاسل والأغلال ،
لم تكن هي الحرية في أتم معانيها .

هناك حرية أخرى ظلت بعيدة المنال منا ، حريتنا في دخائل
نفوسنا التي لا يشركنا في ملكها أحد ، تلك هي حرية العقل والوجدان .
فهل وفق الأديبُ إلى أن يحطم الأغلال التي تقيّد نفسه ،
وتحكم مشاعره ؟

أمامك عدوٌ شاخص ، في مُسكنتك أن تُناجزه وأن تغالبه ، لأنه
يتراءى لك واضح المعالم ، ويكشفك جَهرةً بالعداء . فإذا شئت أن
تطعمه تسنى لك أن تُسدّد الطعن . . . فهذا أيسرُ أعدائك حرباً ،
وأهونهم شأنًا !

أما ذلك العدو الخفي السارب في حنايا نفسك ، الساري في أوصالك
مسرّي الدّم في العروق ، حتى لكانه بضعمة منك ، شائعةً فيك ، فذلك
هو العدو العتي الذي يتطلب قتاله منك جهادَ الأبطال !

إنك قد تُحسّه في نفسك ، وقد تتبين مكانه منك ، ولكنك حين
تبغى استئصاله تتخاذل وتهن قواك ، إذ تشعُر بأنك تنزعُ جزءاً من
كيانك الحي . . .

ربما كنت مؤمناً بأنه عدو لك جدير أن تُناوئه ، حتى تخلص
من أذاه ، فلا يقف في طريقك حَجَرٌ عَثرة ، ولا يحول بينك وبين
المضي إلى الأمام . . .

يَبْدُ أَنْكَ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَجْبُنَ عَنْ مِصَاوَلَتِهِ ، لِمَا تُحِسُّهُ لَهُ مِنْ وَشَائِحِ
قِرَابَةٍ ، وَأَعْرَاقِ الْفُتَى . . . وَإِذَا أَنْتَ مَمْتَحِلٌ كَوَازِبَ الْمَعَاذِيرِ ، فَتَوْهَمُ
نَفْسَكَ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى تَلَا فِي أَذَاهِ ، وَتَطْوِيعِ قِيَادِهِ ، وَتَظَلُّ تُحَاوِلُ وَتَحَاوِلُ ،
إِلَّا أَنَّكَ تَبُوءُ مِنْ مَحَاوِلَاتِكَ بِالْإِخْفَاقِ بَعْدَ الْإِخْفَاقِ !

هَذَا الْعَدُوُّ الْحَبِيبُ ، هَذَا الدَّاءُ اللَّدِينُ ، هُوَ ذَلِكَ الْتَرَاثُ الثَّقِيلُ مِنْ
قَوَاعِدَ وَأَصُولَ ، وَمِنْ قَوَانِينِ وَأَحْكَامِ ، وَمِنْ عَادَاتٍ وَتَقَالِيدِ . . .
كَانَ هَذَا التَّرَاثُ أَزَاهِيرَ نَضْرَتْ فِي عَهْدِ غَوَابِرِ ، فَتَحَدَّثَتْ إِلَيْنَا
مِنْ مَخْتَلَفِ عَصُورِهَا وَأَحْقَابِهَا ، حَتَّى وَشَجَّتْ فِي قَرَارَاتِ نَفُوسِنَا جَذُورًا
يَابِسَةً لَا رَوْتَقَ لَهَا وَلَا عَطَرَ . . .

مَا شَبَهَ نَفُوسِنَا بِتُرْبَةٍ ضَيِّبَةٍ فِي جَوْهَرِهَا ، لَا تُعْمَرُهَا عُنَاصِرُ الْخُصْبِ
وَالْإِزْدَهَارِ . . . إِلَّا أَنَّهَا أَصْبَحَتْ عَلَى تَعَاقِبِ الْأَزْمَنَةِ صُلْبَةً مُسْتَمْسِكَةً
بِجَذُورِهَا الْمُتَحَجَّرَةِ ، لَا يَزُكُو فِيهَا نَبَاتٌ جَدِيدٌ .

فَنَحْنُ أَحْوَجُ مَا نَكُونُ إِلَى مِحْرَاتِ ضَخْمِ ، حَدِيدِ الْخَالِبِ ،
نَحْرَثُ بِهِ تِلْكَ التُّرْبَةَ ، فَيَقْبُضُ مَضَاجِعَ تِلْكَ الْجَذُورِ . . .
نَحْنُ أَحْوَجُ مَا نَكُونُ إِلَى أَنْ نَضْرِبَ بِذَلِكَ الْمِحْرَاتِ ، حَتَّى يَبْلُغَ
الْأَغْوَارَ ، حَامِلًا إِلَيْهَا نَفْحَاتٍ مِنَ الْهَوَاءِ ، وَفِيُوضًا مِنَ الْمَاءِ !
وَهَلِ الْمِحْرَاتُ إِلَّا عَزِيمَةٌ وَجُرْأَةٌ ؟

فَهَلِ تَوَافَرَ لِلْأُدْبَاءِ أَنْ يَكُونُوا عَزَامِينَ جُرَّاءَ ؟
نَحْنُ الْأُدْبَاءُ نَمُضِي فِي مِيدَانِنَا الثَّقَافِيِّ بِحَرِيَّةٍ مَنْقُوصَةٍ تَمْنَعُنَا أَنْ نَقْفَرَ
طَلْقَاءَ حَيْثُ نَشَاءُ . . .

ثُمَّ أَصْفَادُ تُثْقِلُ أَقْدَامَنَا ، وَتَعْوِقُ خُطَاَنَا . . . فَإِذَا مَا عَنَّا لِأَحْدِنَا
أَنْ يَثِبَ وَثْبَةً جَرِيئَةً ، عَضَّتْهُ الْأَصْفَادُ ، فَوَقَفَتْ بِهِ حَيْثُ كَانَ .

نَحْنُ الْأَدْبَاءُ نَسِيرُ ، وَتَتَابَعُ الْمَسِيرَ .
وَإِذَا كُنَّا نَسِيرُ صَفًّا كَأَنَّنا سُجَّانًا مُتَعاقِبُونَ ، مَوْصُولَةٌ أَقْدَامُهُمْ
بِالسَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ .

كُلُّ مَنْ يَسِيرُ . . . أَمَامَهُ رَفِيقٌ وَخَلْفَهُ رَفِيقٌ ، فَهُوَ يَخْشَاهُمَا ،
وَهُمَا يَخْشِيَانِهِ .

كُلُّ مَنْ يَنْقُلُ خَطَاةَ ، وَهُوَ يَفْرِضُ رِقَابَتَهُ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَهْ وَمَنْ
تَأَخَّرَهُ ، وَيَحْسُبُ حَسَابًا لِرِقَابَتِهِمَا عَلَيْهِ .

فَنَحْنُ جَمِيعًا سَجَّانُونَ مَسْجُونُونَ !

سَنَظَلُّ فِي هَذَا الصَّفِّ الْمَوْصُولِ أَرْقَاءَ ، حَتَّى يَنْجُمَ بَيْنَنَا عِبْقَرِيٌّ
فَذُ ، يَبْطِشُ بِطِشَّتِهِ بِقَدَمِهِ الْجَبَّارَةَ ، فَيَحْطِمُ تِلْكَ السَّلَاسِلَ الْغِلَاطَ ،
وَيَثِبُ مِنَ الصَّفِّ لِيَضْرِبَ فِي الْمِيدَانِ ، فَلَا يَلْبِثُ الْجَمْعُ أَنْ يَسْتَشْعِرُوا
رُوحَ الطَّلَاقِ وَالْحُرِّيَّةِ تَشْقُ بِهِمْ جَدِيدًا مِنَ الْآفَاقِ !

الأدب الرفيع

هل تسيء إليه الإذاعة و «السينما» ؟

منذ انبسطت تلك الستارة البيضاء تعرض الصور المتحركة التي نسميها «السينما» ، ومنذ تجاوزت الأرجاء بالأضواء ، منطلقة من تلك الأداة التي تسمى «الرديو» ، جعل المفكرون وذوو الرأي يضربون جباههم بأيديهم ، وهم يتساءلون :

هل تسيء الإذاعة و «السينما» إلى الأدب الرفيع ؟

لقد طالما جرت في هذا الشأن أحاديث المجالس ، ومناقشات الأندية . وانفردت ببحثه مقالات في الصحف والمجلات . بل لقد عقد له بعض المؤلفين فصولاً في كتبهم التي تتناول بالدرس قضايا الفكر والأدب . وكان طبيعياً أن يكون مثاراً هذه المسألة في الشرق ، متأخراً كل التأخر عن ظهورها في الغرب ، فإن الغرب هو السباق إلى استخدام المخترعات الحديثة ، ومظاهر الحضارة الجديدة .. يُصيبُ خيرها ويكابدُ شرّها على السواء !

على أن هذه المسألة نفسها جانبٌ من مسألة شاملة ، هي الإشفاقُ على الفنون كلها من عصر الآلة على وجه عام . فإن المفكرين وقفوا

ينظرون إلى الفنون نظرة خشية وتحسس ، منذ ابتدأت المخترعات الآلية
تستبد وتعتز ويقوم لها سلطان .

ألم يكن الآلات المصوّرة أثر في الرسم بالرّم ، صجّ منه فناؤه ؟
ألم يكن للحاكي أثر في الغناء والمغنين ؟

حقًا كان لهذه المصانع التي تخرج الآلات قوالب متكررة ، أعمقُ
الأثر في الأعمال التي يقوم بها الصانع الفنّان ، ويسكب نفسه في كل
وحدّة من وحدّات عمله الفنيّ .

ولكن ماذا كنّا نبغى ؟

أكنّا نتمنى أن تتعطل الآلة ، ويبطل نفهها المجتمع البشريّ ؟

كلا ، ما كان ذلك ليدور في خلد أحد . فإن هذا المجتمع في عصره
الراهن مدين لتلك الآلة بما سما إليه من تحضّر ، وما توافر له من رفاهية .
وما دامت الآلة ليس منها بُدّ ، فلنا أن نسأل :

هل يفقد المجتمع في عصره الآليّ فنّيته ؟

هل يُحرّم عنصر الفنّ الرفيع ؟

المنطق الحقّ يدعونا إلى القول بأنه لا فقدان ولا جرمان ، ولكن
فكرة ذلك الفن الرفيع يدركها من التطوّر ما أدرك المجتمع الحديث ،
فيكون لها طوعاً لمقتضيات الآلة لون جديد ، وتستقرّ على وضع غير
ما تُعورِف من أوضاع .

فإن كان الأمر كذلك ، فأى أثر تلجّقه الإذاعة و«السينما» بأدبنا

الرفيع ؟

إلى أى مدى تتغير أطواره ، وتنقلب أوضاعه ؟
هل تقضى الإذاعة و «السينما» على ذلك البناء الشامخ الذى تعاونت
على دَعْمِهِ القرونُ والأحقاب . . . أعني به : « الكِتَاب » ؟
كان « الكِتَابُ » وليدَ البيئَةِ التى لَابَسَتْ عصره ، وكان طابَعًا
للعهد الذى أَنْجَبَهُ . بل قل إنه كان ضرورةً من ضرورات الطَّور الذى
عاش فيه المجتمع وما زال يعيش .

أليست خصائصُ « الكِتَاب » هى اتخاذ الوصف والشرح
والتحليل وسيلةً إلى نقلِ الأفكار ، والترجمة عما يتخالبُ النفوسَ من
عواطفَ ونزعات ؟

أوليست هذه الخصائصُ تُتملُّ حاجةَ المجتمع البشرى إلى ذلك
المنحَى من التعبير ؟

« الكِتَابُ » إذن أداةُ عصره فى التواصُلِ الإجتماعى ، وأسلوبُ
زمنه فى التعبيرِ الفكرى .

فهل يَطْوِي المستقبلُ جنبه على نيةِ الإِسْتبدالِ بتلك الأداة ،
والتغييرِ لتلك الأسلوب ؟

أفى مُسْتَطَاعِ الإذاعة و «السينما» أن تطوى صَفْحَةَ « الكِتَاب »
فى يومٍ قريبٍ أو بعيد ؟

مهما يكن من أمر ، فلاحقٌ لنا فى خشيةٍ ولا إشفاق ، ولا عذرٍ
لنا فى الوقوفِ أمام « الكِتَاب » نندُبُ مصيره المخوف !

حَسْبُنَا أن نقف من الإذاعة و «السينما» موقف السائل :

هل يحفظ لنا ذلك النحو الجديد من التعبير نشاطنا الذهني ؟ وهل
يحل محل « الكتاب » في مواصلة التفكير البشري ؟

إذا نجحت الإذاعة و« السينما » في أن تكون أداة أمينة صادقة لبسط
الخواطر ، وعرض الأفكار ، فلا ضير على فنية الأدب مما يكون ، فإن
« الكتاب » حين يزول على هذا النحو أو يضمحل ، فإنما يلحقه ذلك
بوصفه ثوباً من الأثواب ، وصورة من الصور ، وزياً من الأزياء .
وهل « الكتاب » إلا ثوب أو صورة أو زى ؟

من التعلّي في التقدير أن نُنزل « الكتاب » تلك المنزلة من
التقديس ، فنقول بأنه عماد التفكير والتشيف والتفنن ، إن انتقص قدره ،
أو انتسخ ظله ، فلا فن ولا ثقافة ولا فكر .

إذا اتخذ التفكير البشري ترجماناً له ، يطابق الجديد من عصره ،
فقد جرى على نهج طبيعي لا يرتقي إليه نزاع . فما كانت الأدوات
والوسائط يوماً خالدة على الزمان ، وما ينبغي لأداة واحدة أن تبقى على
ترادف العصور ملازمة للإنسان !

المعول كله على الجوهر وحده ، والجوهر في الأدب الرفيع هو
الفكر والم عاطفة . فأما أداة التعبير فهي مظهر من المظاهر ، وعرض من
الأعراض ، لا يأسى على تبديله من سلم له الجوهر ، وخلص له اللباب .
لاريب في أن كلاً من الإذاعة و« السينما » سوف تطبع الأداء الفكري
بطابع يلائم مقتضياتها ، وسيجري هذا الطابع على سنة التطور ، حتى
ينتهي إلى أصول مقررة ، هي زبدة التجارب ، وخالصة المزاوالات .

لا مبالغة في القول بأن الإذاعة سيكون لها في توجيه الأدب نحو
جديد ، بل سيكون لها مثل هذا التوجيه في مختلف الفنون ، وسيكون
هذا التوجيه وفقاً لطبيعة الإذاعة في مخاطبة الأصوات الأسماع .

وكذلك الأمر في « السينما »

ليكون لها هي الأخرى منحصراً يختص بها في التعبير الأدبي
والفني ، وليكون هذا المنحى وفقاً لطبيعة « السينما » في مخاطبة المشاهد
للأنظار

إليك مثلاً مما يمكن تقديره من أثر الإذاعة في الأدب :
ذلك الكاتب الذي يصوغ رأيه في فقر محبوبه ، وجمل محكمة ،
أو يلتمع إلى فكرته المائعة مجازية خاطفة ، مُتَّخِذاً لذلك فنونا من أقيسة
المنطق ، وبدائع البيان ، أترأه حين يكتب ليُلقي ما كتبه في الإذاعة
راضياً عن ذلك الأسلوب ؟

أست تحسبه منتهياً عن ذلك التعمق في التفكير ، والتأني
في التعبير ، مما يتطلب موالاة التمعن والتفطن والمعاناة ، ومعاودة القراءة
مرة بعد مرة ؟

ألا ينتهج المتحدث في الإذاعة منهجاً آخر يجتمع فيه وضوح المعنى ،
ودقة المدلول ، وسرعة انتقال الأفكار إلى الأسماع بلا انقطاع ؟
ودونك مثلاً آخر مما يمكن تقديره أيضاً من أثر « السينما »
في الفن القصصي :

ذلك القصص ، حين يمضي في الكتابة ، لا يجد مفيضاً من الوصف

للأشخاص ، والإبانة عن المشاهد ، والتوسُّع في تحليل خَلَجَات
النفوس . . .

فأما حين يضع الخطَّة لقصته السينمائية ، فإنه يكتب برسم معالمٍ
أساسية يستهدى بها « المخرج » . وإن ظهور الشخصية أمام النظارة
يُنهي إليهم في لحظة عابرة أدق صورة لما يقرءونه في صفحات طِوال ،
وإن تأثرهم بما يشهدون من هذه الشخصية ، ربما زاد على تأثرهم بالقراءة
وإن طال مداها .

وكذلك الشأن في التحليل النفسى للأشخاص ، فإن المشاهد
السينمائية في حركاتها اليسيرة ، ومواقف الممثلين بعضهم من بعض ،
وما يتسمون به من معالم ، وما يبدوونه من إيماءات وإشارات . . .
كل ذلك خليق أن يقوم مقام الإفاضة في الشرح ، والإيغال
في التحليل .

أضف إلى ذلك أن ما تتطلبه القصة من عنصر وجداني ، وجوِّ
شعري ، لا يتعدَّر على الفن السينمائي أن يجاوزه بأوان من المناظر ،
وإيقاعات من الموسيقى ، يُغني غناء المناجاة بالقول ، والتغنى
بالوصف .

ولقد شهدنا فنا من الإخراج السينمائي يحاول إبراز الخواج
النفسية ، واللَّمعات الذهنية ، في مشاهد لا يستعصى فهم مدلولها
على الناظر . . .

وإذن فهذه « السينما » ، وتلك الإذاعة ، تحاول كتابتها وضع

أسلوب مبتكر لفنّ الأدب ، وخلق أداة جديدة للتعبير عن الحياة . . .

وحجة الإذاعة و «السينما» في اتخاذ كلٍّ منهما لما تحاوله ، أنهما تسيران التطور الراهن للمجتمع البشرى ، وتطاولان رُوح العصر الذى يعيش هذا المجتمع فيه .

وتلك حجة لا يثبت أمامها خصم ، ولا يفلسح في نقضها بيان !

حِزَاءُ الْفَنَانِ

للأدب والفن بواعثٌ من باطنِ النفس ، والكثيرُ من هذه البواعث إنما هو مواهبٌ تُفَاضُ على المرء ، لا يعرف لها مَأْتِي ، ولا يَمْلِكُ لها دَفْعًا . . .

فالأدب والفنُّ في بعض عناصره مَوْهَبَةٌ ، إلى جانب أنه دراسة وممارسة . فكيف تنصح لأديبٍ موهوبٍ أو فنَّانٍ موهوبٍ ألا يشتغلَ هذا بالفنِّ وذلك بالأدب ؟

إنك إن نصحتَ لهما بذلك ، فأنتَ تريدُهما على كَبْتِ المَوْهَبَةِ ، ولا ثَمَرَةَ لمثل ذلك النصيح إلا الضيعةُ والإهمال ، لأنك تطلبُ أن تُطَاعَ على حينِ أنك تأمر بما لا يُسْتَطَاعُ .

فلسوفَ تظهر المَوْهَبَةُ لا مَحَالَةَ ، ولسوفَ تلتبس المنفذ ، مهما تقمُّ في طريقها من حوائلٍ وسُدود .

وقد طالما تعالتْ شكوى الأديبِ والفنان ، ينعى كلاهما حظَّهُ من التقدير . . . فأىُّ تقدير ذلك الذي تتعالى منه الشكوى ؟

يُخَيَّلُ إلى أننا نخلطُ بين نوعين من التقدير :

أحدهما : معنوي ، والآخِر : مادي .

وعندى أن الأديبَ والفنان لا تعوزهما أسبابُ التقدير المعنوي ،
ففي البلد على أية حال طبقة من أهل الفكر والرأى ، وذوى الثقافات
والأذواق . . . ومن هؤلاء يتألف رأى عامّ تتوافر له أسبابُ الموازنة
بين الألوان والأفانين ، ويستطيع التمييز بين الطيب وغير الطيب ،
إلا إذا تسللت عواملُ شخصية تتعرّض بها الأحكام لتيّارات الأهواء ،
فإذا هي مجاملةٌ ودهان ، أو خُصومةٌ ولجاج .

وأما التقديرُ المادى فيجب أن يكونَ ماثلاً للأذهان أنه يخضع
لدوافع وملايسات لا صلة لها بأدب ولا بفنّ ، فهو طَوْعُ قانون العرض
والطلب ، ذلك القانون التجاريّ المنتزَع من حقائقِ المجتمع ، الذى
لا يحتملُ المجادلةَ والخلاف ، ولا يُلقى سَمْعاً للمكابرة والعناد .

وَمَدْخُلُ قانون العرض والطلب في التقدير المادى للأدب والفن
أنا مازلنا أمةً قليلاً من يقرأ فيها ومن يكتب ، قليلاً من يتذوّق فيها
ثمرات الفنون . وأن القراءة والتصفّح والمشاهدة للأعمال الفنية والأدبية
مقصورة كلها أو تكاد على عُشّاق الفن وهواة الأدب . فكأن الأديبَ
يكتبُ لأديبٍ مثله ، وكأنّ الفنان يُصوّر أو يرسم أو ينحِتُ لفنانٍ
على شاكلة .

ولو كتب الكاتب وأنتج الفنّان لسائر طبقاتِ الأمة ، وأقبلتْ
هذه الطبقاتُ على الأدب والفنّ تستوفى منهما زادها ، لألفيننا الكتاب
والفنانين راضين أجل الرضا بما يتباح لهم من كسبٍ طيب ، ورزقٍ
موفور . . .

وإني على الرغم من ذلك كله أنصح بالاشتغال بالأدب والفن ، لأن
الأدبَ والفنَ كليهما ضرورة من ضرورات الحياة ، وحاجة من حاجات
المجتمع . وهما سمة من سمات الإنسان المتحضر ، وليس واحد منهما
بجلمية وزينة يمكن الاستغناء عنه ، أو يمكن الاتجاه به إلى فريق دون فريق .
ومتى كُلمت الدعوة إلى تعشق الفن والأدب بالنجاح المنشود ،
نشأت بيئة أدبية فنية ، متعارفة متعاطفة ، وقامت سوق للأدب والفن
رائجة . وفي ذلك حفز إلى التنافس في التجويد ، وإغراء للنفوس بالإقبال .
على أني أنصح لمن يأنس في نفسه نزعة الأدب والفن أن يكون
بصيراً بموقفه ، على بينة من أمره ، غير مخادع نفسه فيما يبتغي من غاية ،
ثم يشق الطريق ليستبين حظه ، ويمارس من التجارب ما ينفي عنه
آفة الجهود .

وإن فطنته في ممارسة التجارب المختلفة ستقفه على ما خفي عنه من
مواهبه الكامنة ، وستبصره بالجانب الذي هو أهل أن يبرع فيه ،
تصديقاً للحكمة الخالدة : كُلُّ مَيْسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ .

وعلى من ينشد الكسب والإغتنام أن يتوخى فرص الإقبال ،
وأن يتعرف وسائل التأثير ، حتى لا يتورط في خيبة وإخفاق كان
في مكنته أن يتفادى منهما ، إن أيقظ فطنته ، وجدد تجربته ، وتناكب
عن الطريق الذي سلكه .

فأما من طلب الفن وحده ، خالصاً له ، فليقدم زاده ، بوجي صادق
من نفسه ، وباعتق قوى من حسه ، لا يرجو عليه من جزاء . . .

مَجْلِسُ "الدَّبَّاعِ"

كنتُ كلما حَزَّ بَنِي ضَيْقٍ مِنْ صَخَبِ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَمَادَّيْتَهَا الْجَافَّةَ ،
وَمَا يُعْشَى الْعَيْنَ فِيهَا مِنْ وَهَجِ زَائِفٍ وَيَهْرَجِ بَاطِلٍ ، فَزِعْتُ إِلَى قَلْبِ
الْمَدِينَةِ الْأَصِيلِ ، حَيْثُ الْحَيَاةُ فِي بَعْضِ أَرْكَانِهِ مَا زَالَتْ مُحْتَفِظَةً بِذَلِكَ
الطَّابَعِ الرَّوْحِيِّ الرَّخِيِّ ، طَابِعِ الشَّرْقِ فِي عَهْدِهِ الْقَدِيمِ ، فَأَتَنَسَّمُ مِنْهُ
عِطْرَ أَزْكِيَا يُسَبِّحُ بِي فِي آفَاقٍ مِنَ السَّكِينَةِ وَالْهُدُوءِ ، وَأَحْلَامِ كُلِّهَا رَوْحِ
وَرِيحَانٍ . . .

فَكُنْتُ أَطْرُقُ تِلْكَ الدَّرُوبَ وَالْمَسَالِكَ الْبَاطِنِيَّةَ الَّتِي تَكَادُ دُورُهَا
تَتَوَاصَلُ وَتَتَعَانَقُ فِي أَلْفَةِ وَوَتَامٍ ، فَأَجُوزُ بِحَوَانِيَتِ الْعَطُورِ وَالسُّبْحِ
وَالْمَبَاسِمِ وَمَا إِلَيْهَا مِنَ الطَّرَائِفِ وَالتَّحْفِ الشَّرْقِيَّةِ الصَّمِيمَةِ ، يَنْفَحُ مِنْهَا
رِيًّا الْعَصُورِ السَّوَالِفِ ، وَتَتَرَاءَى فِيهَا أُطْيَافُ الذِّكْرِيَّاتِ الْعَذَابِ . فَيُخَيَّلُ
إِلَيَّ وَأَنَا أَجُوسُ خِلَالَ هَذِهِ الْمَسَالِكِ وَالدَّرُوبِ كَأَنِّي فِي مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ
التَّارِيخِ الشَّرْقِيِّ الْعَتِيقِ ، تَتَخَيَّلُ فِيهَا أَشْبَاحُ تَعْدُو وَتَرُوحُ فِي مَلَابِسِهَا
الْفَضْفَاضَةَ وَعَمَائِمَهَا الْمُهَنْدَمَةَ ، وَهِيَ تُرْسِلُ نَظْرَاتِهَا هَادِئَةً طَيِّبَةً تَنْمُ عَنْ
سَرَائِرِ صَافِيَةٍ وَنِيَّاتِ كَرِيمَةٍ . وَكَأَنَّ تِلْكَ الْأَشْبَاحَ لَيْسَتْ إِلَّا شَخْصِيَّاتٍ
مُحِبَّةٌ أَعْرَفَهَا حَقَّ الْمَعْرِفَةِ ، أَلْمَحُ فِيهَا أَرْوَاحَ « ابْنِ سَيْنَا » وَ « الْفَارَابِيِّ »

و « ابن رُشد » ومن إليهم من العلماء والأدباء والفقهاء . . .

كنتُ أسير وأتابع سيرى ، حتى يؤدّي بي الطريقُ إلى
« خان جعفر » ، فسرعان ما أتجه إلى مبني أثري وديع ، فلا أكاد ألبجُ
بابه حتى أجد فيه على دكة في ركن قصي شيخاً وقوراً ، جالساً جلسته
الرّخيّة ، في ملابس ساذجة ، متلفعاً بعباءته ومُطرّفه ، وهو قانع بعزلته
يستمرئ سُويّعات طمانينة وصفاء ، ويحتسي الشاي على مهل ، ويدخن
اللفافة تلو اللفافة ، كأنه يستعيضُ بمسامرتها عن مجالس الناس . . .

إذا تفرست في وجهه طالعت فيه غضونًا ومثاني تطوى أعباء
السنين وتجارب الحياة ، وعلى جبهته العريضة تتوضحُ سمات من الأملية
وتوقدُ الذهن ، ومن هذه الطلعة الزاخرة بألوان التعابير ينبعث نورٌ
يُشعركَ بأنك أمام رجلٍ فذٍّ ، وشخصية عامرة .

ذلك هو صديقي الشيخ « إبراهيم الدّبّاغ » !

كان لا يكاد يُحسُّ قدومي ، حتى يغمرنى بفيض من التحية والحفاوة
يدكرني بشاشة الرجل العربي وما يحمل بين جنبيه من الشمائل الحسنى
والسجايا العُزّ . . . وكان هذا اللقاء البهيج هو أولُ الغيث الذي ألقاه
من مُتعة صافية في ذلك الجوّ الشرقيّ الحبيب !

وما أسرع أن يفيضَ الصديق عليّ من نبعه المتدفق إيناساً وإمتاعاً .
فيسترسل في حديثه ، وأنا مُصنّع إليه ، أرقبُ محيّاها النبيل الذي أسبغتُ
عليه الشيخوخة روعةً ومهابة .

كان ذلقَ اللسان ، عذبَ الكلام ، فكّة الروح ، تتخللُ نبراته

تلك البُحَّة الرقيقة ، وهو يُفْرِغُ نفسه في حديثه ، فيتجلى فيه صدقُ
اللهجة ، وطهارةُ الإخلاص ، والدقةُ في الوصف والتعبير . . . فكان
كأنه يبعث أُمى صوراً حيَّةً مُجسَّدةً لمن يتناولهم بالحديث ، صوراً يُضفي
عليها من عبقرية الشاعر ، وروح الفنان ، ما يجعلها أمثلةً جميلةً من خلقِ
الفنِّ الرفيع !

ولقد كان آيةً عصره في قوة الذاكرة ، وحضور البديهة ، وسعة
الإطلاع . وكان أعجوبة الزمن فيما يحتزنُ في صدره من شئون الناس
وأحداث الدهر ، إلى جانب ما يروى من فاخر الشعر وبارع النوادر .
إنك لتُمضي الساعة في إثر الساعة ، وأنتَ بهذا الحديث مسجورُ
السَّمع ، مسجور الفؤاد . تمرُّ عليك أشتات العصور وألوان الشخصيات
وضروب المشاهد والأحداث ، فكأنك تشهدُ « فلماً » رائعاترى فيه
دوَّلاً تدول وأخرى تنهض ، وقصوراً تتداعى وأطلالا تشخص ،
وأقدارا تتداولُ أناساً بالطلوع والأفول . . .

وإن محدثك العظيم ليبلغ قِمة الروعة إذا تناول بحديثه تلك الحُقبَةَ
التي عاصرها ، وتلك الشخصيات التي لقيها وصاحبها . إنه ليتحدث
عن أمراء عروش ، ووزراء دُول ، وزعماء شعوب ، وقادة فكر ، ورُسل
إصلاح ، وطلائع نهضة . . . ويعرِّجُ بحديثه يَمَنَّةً ويسرَّةً ، فتراه يُغيرُ
ويُنجدُ ، فيتحدث عن الصعاليك والمفاليك وأهل المغامرة ورؤاد السبيل
وغيرهم من المبرزين في حلبيات الحياة على اختلاف طبقاتها عالية ودانية . .
وتستمع إليه حيناً ، فإذا هو ينبسُ دفائن الأسفار في أدب أو لغة

أو تاريخ ، وإذا هو يَقْصُّ عليك من غريب الروايات وشائق الأسمار ما يدلُّك على أنه جوهرىٌّ ماهرٌ في التمييز بين اللآلئ والأصداف ! فإذا استنشدته من قرِيضِهِ ، أنشدك قلائدَ وخرائدَ ، فسمع شعراً رقيقاً يَفِيضُ بصدق العاطفة ، في ديباجةٍ عربيةٍ المنزَّع ، ترجع بفصاحتها إلى عصور العربية الزواهر . وإنه لَيْسَهُلُّ عليك أن تعرف طابعه في شعره ، وأن تُمَيِّزَه من غيره من الشعراء بخصائصه التي لا ينازعه فيها منازع .

وإن كان لنا أن نَأْسَى على شيء فانتنا منه ، فإن أولَ ما يؤسفنا أنه لم يُعَنَّ بتدوين مذكراته ، ولم يُودِعْ بطون الصحائف ما أودَعَ صدره الرَّحْبَ من غوالي الذكريات ... ولو عُنِيَ بتدوينها لكان لهذه المذكرات أكبرُ شأنٍ في اجتلاء رُوح العصر الذي عاش فيه . وهو حَقِيقَةٌ من تاريخ الشرق لها أكبرُ الأثر في توجيه مصيره . فإنها طليعةٌ وَعْيِ الشرق ، ومشرقٌ يقظته ، وفتاحةٌ أهدبته للجهاد في سبيل التحرُّر والنهوض .

باختفاء ذلك الشيخ الكبير تَخْتَفِي تلك المعلمة الضخمة ، وذلك السِّقْر النفيس . . . فوا أسفاه عليه وعلى ما وَعَى صدره من تاريخ الجليل ! لقد عاش الشيخُ « الدبَّاع » عمراً ليس بالقصير ، اتصل فيه بالناس خاصةً وعامةً ، وذاق فيه الحياةَ شهيداً وصائباً ، فتغلغل في صميم الدنيا ، وفهمها حقَّ الفهم . لم يَعِشْ حياته عبثاً ، بل أفاد من كل لحظة ، وانتهر كل فرصة ، فكانت تجارِبُهُ أضعافَ عمره . ولقد ولى عن الحياة بعد أن اشْتَفَّ الكأسَ ، واستوعبَ الثمالة . . . وكأنه ينظر إلى الحياة قائلاً :

ماذا في مستطاعك أن تُقدِّميه إلىَّ بعدُ؟

سأُبرحكِ إلى ما هو خيرٌ وأبقى.

سأواجهُ حياةً جديدةً أنعمُ بها في العالم الآخِر .

أيتها العاجلة الفانية :

لقد بليت ، وذُبلتْ زهرتْكِ في يدي ، فأنا ماضٍ عنكِ إلى

نعيمٍ مُقيمٍ .

أَيُّ صديقِي الراحل .

أَسْتَوْدِعُكَ اللهُ .

وإلى لقاءٍ نستأنف فيه حُلُوَّ الحديث ، لا في « خانِ جعفرِ » ولكن

في « خانِ رضوانِ » . . . نَجْلِسُ على أريكةِ الفِرْدَوْسِ ، ونُسْقِي من

رَحِيقِ مَخْتومِ !

السَّيِّدِ طَبَنَجَات

كان بدء اتصال بـ « على حسن سليمان » أعني الأستاذ « طَبَنَجَات » منذ أكثر من عشرين عاماً ، إذ كنتُ أعملُ على نشرِ مؤلفات شقيقي المرحوم « محمد تيمور » . قَدَّمَهُ إِلَى صَدِيقِنَا الْأَسْتَاذِ « زَكِيِّ طَبَنَجَات » ، لِيَنْسَخَ بَعْضَ أَصُولِ الرِّوَايَاتِ . فَالْتَقَيْنَا فِي مَنْزَلِي . وَلَا أَزَالُ أَذْكَرُ تِلْكَ اللَّقِيَّةَ الْأُولَى فِي الْحَدِيثِ ، حَيْثُ أَخَذْنَا تَبَادُلَ الْحَدِيثِ . وَرَاعَى مِنْهُ أَوَّلَ رُحْمَةٍ ذَلَاقَةَ لِسَانِهِ ، وَقُوَّةَ تَدْفُقِهِ ، فَمَا أَسْرَعَ أَنْ مَلَكَ زِمَامَ الْمَوْقِفِ ، وَانْدَفَعَ يَتَحَدَّثُ فِي شَتَّى الشُّعُونِ التَّمْثِيلِيَّةِ ، فَلَمْ أَمْلِكْ إِلَّا التَّسْلِيمَ لَهُ بِالْبَطُولَةِ فِي فَنِّ الْكَلَامِ . . . وَانْتَهَتْ هَذِهِ اللَّقِيَّةُ دُونَ أَنْ تَتَعَرَّضَ لِلْمَوْضُوعِ الَّذِي حَضَرَ مِنْ أَجْلِهِ . فَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ بَادِرَةٍ مِنْ خِصَائِصِ الْأَسْتَاذِ !

وَتَوَالَى لِقَاؤُنَا بَعْدَ ذَلِكَ ، فَتَوَضَّحْتُ لِي شَخْصِيَّةَ السَّيِّدِ « طَبَنَجَات » جَانِبًا بَعْدَ جَانِبٍ . وَكَانَ أَكْبَرَ مَا تَوَضَّحَ لِي مِنْهَا أَنَّهَا شَخْصِيَّةٌ لَيْسَتْ مِنَ الْهِنَاتِ الْهَيْنَاتِ ، بَلْ إِنَّهَا مِتَشَابِكَةٌ النَّوَاحِي ، تَسْتَوْجِبُ الْفَحْصَ وَالتَّشْرِيحَ . وَلَيْسَ مِنَ الْعَجِيبِ أَنْ أَجِدَ هَذِهِ الشَّخْصِيَّةَ الَّتِي طَالَعْتَنِي بِطَرَاقَتِهَا وَشَدُوذِهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ ، تُلْهِمُنِي عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْأَدِيبَةِ ، أَقْصِدُ قِصَّةً : « أَبُو عَلِيٍّ عَامِلٌ أُرْتِيَسَتْ » . . .

وينبغي أن أتنبه إلى أنني لم أردد في قصتي وُصف السيد « طبنجات »
والتقيّد بتاريخ حياته . بدليل أني قلتُ في وصف « أبو علي » بطل قصتي :
« وكان قزماً هزيل الجسم ، بيدين طويلتين كيدي الغوريلا ، ووجه
طويل أعجف ، بأنفٍ مدلى على فمه ... » وكل الذين يعرفون « طبنجات »
يدركون بالبدهة أن هذه الصفات لا تنطبق عليه تمام الانطباق !

هذا من جهة الوصف ... فأما من جهة تاريخ الحياة ، وموافقته لما
في القصة ، فقد أثار في الدهشة أني تبينتُ بعض التشابه بين ما أوحته
إليّ المخيلة وما ثبت لي أنه واقع من حوادث الأستاذ ...

فلا أنسى أنه ذات يوم ، بينما نحن خاليان في الحديقة ، إذ طلب
إليّ أن أنتجني به ناحية ليُسِرَّ إليّ شيئاً . وهناك كشف لي عن حقيقة
هذه المشابهة في بعض المواقف !

وعلى الرغم من ذلك كله ، فإن ثمة فوارق متعددة بين القصة
والرجل والبرهان الأعظم على ذلك أن « أبو علي الأرتيست » انتهت
حياته في شَرخ الشباب ، فأراح واستراح ، ولكن السيد « طبنجات »
— أطال الله بقاءه — جاوز حدَّ الأربعين ، وما يزال حيّاً يسعَى
حتى كتابة هذا المقال !

والمعروف عن الأستاذ أنه « نَسَّاح » في « الفرقة القومية » وفي بعض
الروايات السينمائية تُسند إليه أدوار هزلية سريعة . والحق أن هذا ليس
معبراً عن مواهبه الكثيرة التي يعرفها له أصدقاؤه . ونحب أن نُظهر منها
ثلاثاً ، وما خفي كان أعظم :

أولاً : أنه يجيد فنَّ « التراجيديا » وقد شهدت له بعضُ المحافل الخاصة مواقف من روايتي « عَطِيل » و « أوديب الملك » وأعجبت به أيما إعجاب . . .

ثانياً : أنه شاعر قدير ، ولكنه لا يحفلُ بنشر قصائده ، أو على الأصح لا يعتمد على الصحف في نشرها ، وإنما يذيعها بنفسه بين من يأنسُ فيهم تقديره . وقد وجد أن هذه الوسيلة أنجح في التمكن من آذان السامعين !

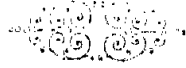
ثالثاً : أنه نقادة ماهر ، أخذُ بناصية فنّه ، مع تشعب هذا الفن وعمقه . وهو في الواقع متعشق للنقد ، شديد الحس في شأنه ، حتى إنه في بعض الأحيان لا يملك نفسه إذا لم يُعجبه كلام فيما ينسخه من روايات المؤلفين ، فتراه يُصلح ما يبدو له ، غيرَ لَوٍ على شيء . . . وقد وقع منه أثناء نسخهِ لى بعض القطع أن قامه لم يُعني من التغيير والتبديل . وإنى - مع اعترافى بأنه على حق فيما اقترفت . . . - لم يسعني إلا الاحتفاظ بما في الأصل الذي كتبته ، إبقاءً على الجهود الفني للأستاذ أن يضيع في آثار الغير !

وخشيّة الإثقال على القارئ ، لم نذكر أنه مؤلف مسرحي ، وأنه كذلك قصاص . وحسبه أن له في الميدان الأول رواية « الحشرات » التي يعرفها كل من يشترك في أحاديث « قهوة الفن » . . . فأما عمله في الميدان الآخر فهو أدهى من أن نُجمله في سطور . وهناك في داره كوماتٌ مكدسة من الأوراق المحبرة تجمع شتات مؤلفاته التي كان

يتوالى ظهورها لو قامت في البلد هيئات منظمة ، تُعنى بإنتاج أهل
الفن المظلومين ! .

وفي ظني أن هذا الحديث الموجز يصور للقارئ على وجه السرعة
شخصية السيد « طينجات » .

ولعلني أكون بذلك قد أدتُ دينَ الأستاذِ عليّ ، إذ كانت أحاديثه
الغالية وحيًا لأثر من الآثار القصصية التي جرى بها القلم !



فهرست

صفحة							
٥	مقدمة . بقلم خليل ثابت بك
٧	المصادر التي ألهمتنى الكتابة
٢٣	شفاء الروح ...
٢٧	إلى شلالات « نياجارا »
٤١	الورد في « موترو »
٤٧	صحيفة الخائبين ...
٥٣	« بلاص » الجمال
٥٩	في صومعة الذكريات
٦٣	ثلاثة تمائيل ...
٦٩	وسائل الإلهام ...
٧٣	أول لقاء ...
٧٧	أحب العاشقين إلى
٨١	أنت في نفسك دولة
٨٧	للمرء أذنان ...
٩٣	أعداء ثلاثة . .
٩٩	دعونا نتنفس ...
١٠٧	العالم بين شقي رحي
١١٣	الدينا هي هي ..
١١٩	ذلك الطفيلي الفنان
١٢٧	جنود مجهولون في السوق السوداء
١٣٣	قصر الأحلام ...
١٣٧	أتهم الأدباء ...
١٤١	الأدب الرفيع (هل تسيء إليه الإذاعة والسينما ؟)
١٤٩	جزاء الفنان ...
١٥٣	مجلس « الدباغ »
١٥٩	السيد « طبنجات »

أحدث مؤلفات

الكاتب الكبير الأستاذ محمود تمور بك
عضو مجمع فواد الأول للغة العربية

قصص تمهيلية :

ابن جلا
فداء
اليوم خمرة
حواء الخالدة
الخبأ رقم ١٣
سهاد
المنقذة
عوالى
قنابل
أبو شوشة والموكب

مجموعات قصصية :

كل عام وأنتم بخير
إحسان لله
خلف الأثام
شفاه غليظة
بنت الشيطان
مكتوب على الجبين
فرعون الصغير
قل الراوى
شباب وغانيات

صور وخواطر :

شفاء الروح
ملامح وغضون
أبو الهول يطير
عطر ودخان
فن القصص
ضبط الكتابة العربية

قصص مطولة :

كليوباترة فى خان الخليلى
ساوى فى مهب الريح
نداء الجهول

عَرَضٌ وَتَحْلِيلٌ

للكتبة التي أصدرتها لجنة نشر المؤلفات التيمورية

ضبط الأعلام

مرجع صحيح لبعض الأعلام التي ردت إلى أصلها خالية من التحريف اللساني أو التصحيف القلمي . وكثيراً ما يعيا الأدباء والمشتغلون بالتاريخ الأدبي بالبلدان أو سواها لمعرفة النصوص الأدبية .

الأمثال العامية

هو وصف كامل لعيشة الناس وأحوالهم في طرافة وفي إبداع ، يتحدث عن العامة وغير العامة بأسانهم ، ويعور حكمتهم . (سيعاد طبعه)

الكنايات العامية

قاموس شامل لكنايات العامة ودورانهم في العبارة ، ولتفهم المعنى مع اللفظ علاوة على الدقة في الحكمة الموسيقية .

لعب العرب

ثمرة من ثمرات مطالعات تيجور باشا الكشيرة الفنية ، ودراسة وافية لشيء الألعاب في الصدر الأول .

(سيعاد طبعه)

البرقيات المرساة والمفان

هي نثر مضغوط ضغط الشعر ، محبوبك حكيمته ، قليل الألفاظ ، غزير المعنى . بل هي نفسها البلاغة التي تغنى في إنجازها عن تفصيلها .

أوهام شعراء العرب في المعاني

من الذخائر العلمية النفيسة ، والمراجع الوافية الدقيقة ، التي لا يستغنى عنها كاتب أو أديب .

رسالة في الرتب والرتاب

عن ألقاب رجال الجيش وسائر الهيئات العامة وأرباب القلم منذ عهد أمير المؤمنين عمر الفاروق إلى الآن .

سفراء الروح

للكاتب الكبير الأستاذ محمود تيمور بك عضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية
يتضمن ألواناً شتى من الرسائل الأدبية النفيسة .

كتب خطية نادرة (تحت الطبع)

ديوان عائشة التيمورية

مضافاً إليه القصائد التي لم يسبق نشرها ، إحياءاً لذكراها الخالدة ، وتقديراً لمكانتها
العلمية والأدبية .

الذكرة التيمورية

معجم شامل للأعلام والبلدان والبحار والأنهار ، وهو يقع في جزءين .

معجم العاصمة المصرية

وهو من المدهشات في التحقيق اللغوي ، ويقع في أربعة مجلدات من
الحجم الكبير .

المواكب الأردنية

مجموعة نفيسة تتضمن كثيراً من الفوائد والنوادر في اللغة والأدب .

الآثار النبوية

وهي بحوث تاريخية نفيسة اختتم بها تيمور باشا حياته .

ضبط الأعلام والنسب والبلدان

رأت اللجنة إعادة طبع كتاب ضبط الأعلام مضافاً إليه النسب والبلدان
طبعة جديدة في جزءين .

وغير ذلك من الكتب الخطية النفيسة التي تنشرها اللجنة تباعاً ولا تستغنى
عنها المكتبة العربية الحديثة . وتطلب هذه الكتب من سكرتير عام اللجنة

الأستاذ أحمد ربيع المصري

بدارها بميدان البدولي بجوار متحف فؤاد الصحي — عابدين بالقاهرة

تليفون : ٧٧٧٩٣

ومن جميع المكتبات الشهيرة في مصر والأقطار العربية

